

سلسلة كشكول الرسائل والمسائل



في

الدوريات الفكرية الفرنسية الكبرى

تأليف: الدكتور إلياس بلكا

مدونة إلياس بلكا: Blog : http://ilyassbelga.blogspot.ae/
Twitter + Facebook:
تكتب الاسم باللغة العربية: إلياس بلكا
Email: ilyassbelga@gmail.com

إلياس بلكا: كاتب وأستاذ جامعي من المغرب.

- إجازة (بكالوريوس) في الدراسات الإسلامية، وأخرى في القانون العام (العلاقات الدولية).
- دبلوم الدراسات العليا في الفقه الإسلامي وأصوله.
- دكتوراه الدولة في العقيدة والفكر الإسلامي.

- الكتب المطبوعة، بالعربية:

1- الاحتياط في الشريعة الإسلامية. مؤسسة الرسالة، بيروت، 2003.
2- مقدمة في التنجيم وحكمه في الإسلام. مؤسسة الرسالة، 2003.
3- النظرية الإسلامية في الكهانة. مؤسسة الرسالة، 2003.
4- الغيب والمستقبل.
5- الغيب والعقل (دراسة في حدود المعرفة البشرية). الطبعة الأولى: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، 2008 . الطبعة الثانية: دار التنوير بالقاهرة، 2014.
6- جولات في الدوريات الفكرية الفرنسية الكبرى. مطبعة أنفوبرانت، فاس . 2007 .
7- استشراف المستقبل في الحديث النبوي. سلسلة كتاب الأمة رقم 126، قطر. 2008.
8- الوجود بين مبدئي السببية والنظام. منشورات المعهد العالمي، 2008.
9- إشكالية الهوية والتعدد اللغوي في المغرب الكبير: المغرب نموذجا. (بالاشتراك مع الدكتور محمد حراز). مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، أبو ظبي، 2014.

- كتب بالفرنسية:

- الفكر الجيوبوليتيكي لزبيغنيو بريجينسكي، من خلال كتابه "رقعة الشطرنج الكبرى".

- كتب تحت الطبع:

- مشكلات افتراق الأمة إلى سنّة وشيعة. الأصول والحلول.
- علوم السنة الشريفة: إرث الماضي وتحديات الحاضر.
- دراسات وأبحاث فكرية عامة.
- دراسات وأبحاث في العلوم الشرعية.
- آفاق جديدة في البحوث الإسلامية.
- مشكلة الاستدلال في الفقه المالكي: تطبيقات فقهية من فقه الأسرة.

ومئات المقالات والأبحاث والترجمات المنشورة.. بعضها بمدونة المؤلف.

الكتاب: جولات في الدوريات الفكرية الفرنسية الكبرى.

السلسلة: الكتاب الأول في سلسلة " كشكول الرسائل والمسائل".

المؤلف: إلياس بلكا.

الطبعة: الأولى.

السنة: 1428هـ، 2007 م.

الناشر: المؤلف.

المطبعة: أنفوبرانت، شارع القاديسية ليدو فاس، المغرب.

الهاتف: 035.64.17.26

البريد الإلكتروني: infoprintfes@gmail.com / imtiazprint@maktoob.com

رقم الإيداع القانوني: 0902/ 2007.

ردمك: 9954-8793-1-5.

بسم الله الرحمن الرحيم.

كلمة حول سلسلة "كشكول الرسائل والمسائل":

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على نبيه العظيم وعلى آله المطهرين وصحابته أجمعين. وبعد،

فهذا هو العدد الأول من مجموعة كتيبات ورسائل كتبتها على فترات زمنية متفاوتة تتجاوز خمسة عشر سنة. بعضها قد ينفع أهل الاختصاص، وبعضها موجه للمبتدئين. وهي رسائل لا يكاد يجمعها رابط، فهي تتعلق بحقول متنوعة من: العقائد والأصول والفقه والفكر والأدب وعلوم الإنسان والاجتماع..لذا سميت السلسلة كشكولا.

وأكثر هذه الرسائل - التي يجد القارئ الكريم عناوينها بغلاف هذا الكتاب- جاهزة تنتظر دورها في الطبع والنشر. وأتمنى أن يجد فيها القارئ بعض الفائدة، وأن تفتح له آفاقا أرحب لمواصلة البحث والمطالعة.

ويسعدني أن أتلقى من القراء الأفاضل أي ملاحظات أو انتقادات أو اقتراحات، فإنما هو جهد المقل، وإنما العلم لله تعالى، ولا حول ولا قوة إلا به.

مقدمة الرسالة:

الحمد لله العلي الكبير، والصلاة والسلام على النبي الكريم وعلى آله وصحبه.

وبعد، فإن هذه الرسالة عبارة عن قراءات في بعض أهم المجلات الفرنسية المتخصصة في حقول الفكر والثقافة والعلوم الإنسانية، قصدت منها تعريف القارئ العربي بما يدور في الساحة الثقافية الفرنسية من دراسات واهتمامات ومناقشات.. بما في ذلك قضايا الإسلام والمسلمين. وتجنبت الدوريات ذات التخصص الجزئي الدقيق، لأنها في الغالب لا تعني إلا أقلية من أهل الاختصاص.

فهذا الكتاب وإن لم يكن يسمح بإعطاء نظرة تفصيلية كاملة عما يدور في الساحة الفكرية الفرنسية، إلا أنه يقدم نظرة عامة تكفي لمعرفة الطابع العام لهذه الساحة. والأعداد المعتمدة صدرت في شهور ماي ويونيو ويوليوز(أيار وحزيران وتموز) من سنة 2005، وجميعها يصدر مرة كل شهر أو شهرين أو ثلاثة.. وليس بينها إصدار في أقل من شهر.

وأوجه الدعوة من على هذا المنبر إلى أهل الثقافة والفكر أن يساهموا في تعريف القراء العرب ببعض الإنتاج الفكري والعلمي الذي تنشره الدوريات والمجلات باللغات الأخرى، كالإنجليزية والإسبانية والألمانية..بل حتى باللغات الأقل تداولا بين النخب العلمية الوطنية والعربية، كالروسية والعبرية والفارسية..وأنا أعلم أن جامعاتنا ومؤسساتنا تتوفر على الكفاءات اللازمة لإنجاز هذه المهمة وأمثالها. كما أنني تركت هذه الرسالة كما كتبتها في عام 2005 دون تعديلات أو إضافات أو زيادات.

وأخيرا أنبه القارئ إلى أن الأصل في جميع الكلام الآتي أنه لأصحاب المقالات، ومتى كان لي تعليق أو رأي ميزته حتى لا يختلط الحديثان.

1- "ملفات ووثائق" (لوموند):

تقدم جريدة لوموند إصدارا دوريا يتعلق بالشؤون الدولية العامة، وخصصت عدد حزيران 2005 لقضايا الأديان، وذلك في إطار الدور المتعاظم للدين في عالم اليوم وعودته إلى احتلال المركز في جدل الهويات العابر للقارات.

في هذه النشرة ثلاثة محاور: الأول عن المسيحية في أرض الإسلام، والثاني عن الخلاف السني-الشيعي، والثالث عن تحديات جديدة تواجه الاتحاد الأوربي. فأما مقالات المحور الثاني فتعريف عام بالمذاهب الإسلامية وبعض قضايا الشيعة بإيران والعراق.. مما أكثره معروف لدى القارئ العربي. بينما مواضيع المحور الثالث سياسية صرفة. والمحور الأول غني ودسم ومفيد، لهذا سأقتصر على تقديمه دون غيره للقارئ الكريم.

المسيحية في بلاد الإسلام:

أما المقال الافتتاحي "الصليب في أرض الإسلام" فصرخة شبه يائسة تحذر من "انقراض" المسيحية بالعالم العربي – الإسلامي بفعل الهجرة وتراجع النمو السكاني (12 مليون مسيحي بالعالم العربي)، وما اعتبره الكاتب – هنري تانك- اضطهادا لهذه الأقلية. وفي مقال آخر له ينبه إلى أن الشرق هو مهد المسيحية وموطن المسيح وأمه والحواريين وكبار علماء اللاهوت والرهبان.

والمقال الثاني "من أجل مسيحية عربية" أكثر موضوعية في البحث عن أسباب هذا التراجع، ومنها: شدة انقسام الكنائس الشرقية، والدور السلبي للمسيحية اللاتينية في الماضي (مثال الحروب الصليبية، ونهب الصليبيين

للقسطنطينية عاصمة المسيحية الشرقية أثناء مرورهم إلى الشرق...). فيما ركزت مقالات أخرى على ظاهرة إفراغ المسيحيين من أرض فلسطين المحتلة، وبعضها أشار إلى أن ذلك مبرمج من طرف الصهيونية. وفي هذا السياق تحدث مقال آخر عن نموذج مدينة بيت جالة ذات الأغلبية المسيحية والتي يهجرها أهلها بكثافة، فيما تقدم القنصليتان الأمريكية والكندية تأشيرات الهجرة بسخاء.

وفي الملف أيضا باب خاص لرصد أوضاع مسيحيي لبنان، وآخر عن الحريات الدينية في العالم حيث اتهم الكُتاب دول الصين وفيتنام وإيران ونيجريا والسودان بمحاربة حرية التدين، ويعنون بذلك حرية التعبد والتبشير المسيحيين، ففي الهند مثلا لا يسمح المتطرفون الهندوس بذلك. وجاءت مقالات أخرى عن هجرات المسيحيين العراقيين إلى أوربا وأمريكا، وعن أقباط مصر، ومسيحيي جزر المولوك بأندونسيا....

وكانت مقالات أخرى عن "ريادة" البابا بولس الثاني في الحوار مع الإسلام، ودور المستشرق لويس ماسينيون (توفي سنة 1962) في الإعداد لهذا الحوار، حيث إنه طور نظرية يكون الإسلام بمقتضاها نوعا من الانشقاق الداخلي عن المسيحية، أي بدعة مسيحية... لكن مقالا آخر عن البابا الجديد لا يتوقع منه أن يقوم بما ينتظره منه كثير من المسيحيين من القيام بخطوات صلح تنهي صورة صدام الغرب اليهودي-المسيحي مع العالم الإسلامي.. ولذلك يتخوف بعض المتابعين من التطرف المستور لهذا البابا تجاه الإسلام.

ويوجد أيضا مقال طويل لكاترين سيمون تتحدث فيه عن تقدم التنصير بمنطقة المغرب العربي، وخصوصا بمنطقة القبائل بالجزائر. وتسجل الدور المتصاعد للمبشرين التابعين للكنائس البروتستانتية. ويقدر عدد المتنصرين

بالجزائر بحوالي ألف شخص في السنة، بحسب المقال. وقد اشتد هذا التنصر -تقول الكاتبة- خصوصا في ذروة الحرب التي شهدتها الجزائر في التسعينيات، ويعرف المغرب الظاهرة نفسها، لكن بدرجة أقل.

رأيي في هذا الملف وفي موضوع المسيحيين العرب:

بداية أرى أن لإخواننا المسيحيين بالعالم العربي والإسلامي مكانتهم ودورهم ووجودهم المشروع. وليس هذا اختيارا منا فقط، بل هو- قبل ذلك- من مبادئ الإسلام الكبيرة، والتي فرضت على المسلمين الاعتراف بأهل الكتاب. ولولا هذا الموقف الديني العظيم لما استمر وجود المسيحيين بأرض الإسلام طوال أربعة عشر قرنا.

إن الإسلام يعترف بالديانتين المسيحية واليهودية، وهما اللتان لم تقابلا ذلك باعتراف مماثل. بل نحن نشهد اليوم -كما بيّن ذلك اكسافيير تيرنسيان كاتب المقالة عن البابا الجديد- أن أفكار بينوا السادس عشر هي نوع من الردة حتى عن أفكار سابقه بولس الثاني في موضوع العلاقة مع الإسلام.

لهذا أدعو الدوريات ووسائل الإعلام العربية إلى فتح هذا الملف ومعالجته بجد وصدق في حوار بناء وصريح، فالمسيحيون العرب كانوا دوما جزء لا يتجزأ من حضارتنا العربية- الإسلامية، ولئن لم يكن الإسلام لهم دينا، فهو لهم ثقافة وتراث. إن الوجود المسيحي جزء لا غنى عنه من ماضينا وحاضرنا المطبوعين بالتنوع والتكامل: وجود مقرر شرعا ودينا، وثابت تاريخيا وحضاريا. ولسنا نفرح ولا نشرح لاندثار هذا الوجود وغياب هذا المكون الحضاري العريق.

إن الفكر العربي والإسلامي مدعو اليوم أكثر من أي وقت مضى إلى التفكير في موضوع الأقليات -دينية كانت أو إثنية- وتقديم اجتهادات تجمع

بين الثوابت الدينية والحضارية وبين احترام حقوق الأفراد والجماعات... مراعيا في ذلك الانقلابات الكبرى التي شهدها العالم الحديث – ولا يزال– في جميع المجالات.

فإذا تمهد هذا انتقلت إلى ذكر ملاحظات مختصرة عن هذا الملف:

1- لقد فاجأتني مقالات كثيرة في طريقة معالجتها للموضوع: مغالطات بالجملة، وتحوير للحقائق، وجهل بواقع الإسلام والمسلمين.. كل ذلك في إطار واضح من التهويل والتحريض.. وهذا يجعلنا نتفهم الطابع الحذر للفكر الإسلامي المعاصر في تناوله لهذه القضايا، كالتنصير مثلا. فهذا الملف يبين بجلاء أنه بالنسبة لكثير من الغربيين يعتبر "الخلاف الإسلامي– المسيحي" قضية جد مركزية وانشغالا ثابتا.

2- إن أوضاع المسيحيين العرب ليست بهذا السوء الذي يصورها به بعض الكُتاب. فأقباط مصر مثلا أفضل من مسلميها من الناحية الاقتصادية. كما أن أزمة دارفور في السودان كشفت أن حرب الجنوب ليست دينية، فأهل دارفور مسلمون. ولذلك فإن أسباب هذه الأزمات تكمن في النواحي السياسية والقبلية والاقتصادية.. ونحوها.

3- أهمل الكتاب عاملا رئيسا في تراجع المسيحية العربية، وهو ظاهرة الحداثة التي طبعت العالم الأوربي منذ حوالي قرنين، وأدت إلى تراجع المسيحية الأوربية نفسها فيما يعرف بـــ "انحسار النصرانية" Déchristianisation [1]. وجاءت العولمة أخيرا فسرعت هذه الظواهر وعمقتها.

1- راجع المقالة بالموسوعة الكونية: Article Déchristianisation, in :Encyclopaedia Universalis, Paris, 1996.

ولما كان المسيحيون العرب سباقين -كما هو معروف- إلى الاحتكاك الثقافي بأوربا منذ بداية القرن التاسع عشر... كان من الطبيعي أن يتعرضوا باكرا لرياح الحداثة والأنوار. ولهذا تساءل أحد كُتاب الملف ما إذا كانت الدول الغربية تتحمل قسطا هاما من مسؤولية الهجرة المستمرة للمسيحيين العرب إليها، بحكم الإغراء والاستعلاء الحضاريين اللذين يمارسهما الغرب على الشرق بجميع من فيه.

هذا ما يضع الموضوع في إطاره الصحيح، فكثير من العرب – مسلمين ومسيحيين- يهاجرون إلى أوربا وأمريكا، وأكثر هذه الهجرات لا علاقة لها بالدين، بل لأسباب اقتصادية وثقافية معروفة (مثل جاذبية نمط الحياة الغربية)... أما المهاجرون لأسباب سياسية أو للاضطهاد، فإن إحصاءات الأمم المتحدة تبين أن الأكثرية الساحقة من اللاجئين في عالم اليوم هم من المسلمين.

4- الكلام عن انقراض المسيحية بالشرق العربي كلام مغلوط، يتعمد أصحابه التهويل لتحريض الرأي العام الأوربي والأمريكي على مزيد من التدخل في المنطقة. بينما الواقع أن الأمر يتعلق فقط بتراجع في نسبة المسيحيين إلى المسلمين – كما بلبنان- لأسباب كثيرة أهمها: الديموغرافيا والهجرة. لذلك فالوجود المسيحي قائم ومستمر، على الأقل في المستقبل المنظور.

5- لم أفهم كيف يعتبر كاتب مقالة "نحو مسيحية عربية" أن استمرار النصرانية بالعالم العربي هو ضمانة لعلـمانيته ولائكيته. إذ ما مصلحته هو – أو غيره- في ذلك، وما علاقة ذلك بالموضوع.

6- مازلت ألاحظ في كثير من الدوريات الفرنسية استمرار التشويش على تركيا لمنعها من ولوج الاتحاد الأوربي، كما بمقال: انحطاط الأقليات بتركيا، بنشرة لوموند هذه.

تنبيه في موضوع التنصير اليوم:

أما ما جاء في موضوع نجاح التبشير البروتستانتي والكاثوليكي في اختراق منطقة المغرب العربي.. فصحيح. أعني أن الظاهرة محدودة لكنها واقعية، فعدد من الشباب المغاربي يتنصر، لأسباب مختلفة [1]. وأود هنا أن أنبه من يعنيه الأمر إلى جملة أمور:

1- يجب أن يعرف القارئ العربي أن قسما من الطبقة المثقفة الفرنسية – لائكية كانت أم مسيحية- لم تنس أبدا الوجود المسيحي الماضي في شمال إفريقيا، أيام الرومان والوندال، ولم تتقبل أبدا أن تتحول هذه المنطقة إلى الإسلام، فهي غصة في حلوقهم إلى الآن. في هذا الإطار يمكن أن نفهم لِمَ كتب أحدهم في هذا الملف عن الأصول الشمال- إفريقية للقديس أوغسطين، أحد كبار علماء اللاهوت المسيحي وصاحب كتاب "مدينة الله" (توفي سنة 430م).

ويقول الأب جوزف جوبلان – الأستاذ بالجامعة البابوية الغريغورية بروما- في إحدى حواراته، جوابا عن رأيه في موضوع العلاقة بين المسيحية الغربية والإسلام: "الوقائع حاضرة هنا. فإذا نظرنا – نحن الأوربيون- إلى منطقة حوض البحر المتوسط، فإننا لا نستطيع نسيان لا الماضي ولا الحاضر.

---

[1]- انظر: "المجلة المغربية" التي خصصت عدد 96، يونيو 2005، لموضوع: "المسيحيون المغاربة، بين حرية الاعتقاد وحد الردة"، وهو ملف العدد. المجلة سياسية ثقافية شهرية، مديرها المسؤول الحسن اربعي، الرباط.

إن الغزو العربي للحوض المتوسطي حقيقة واقعية، والجيوش المسلمة اجتاحت أوربا حتى بواتييه وبلغراد وفيينا..."[1].

2- أتوقع أن تنمو ظاهرة التنصير، خصوصا وأن هناك ضغطا متزايدا على العالم العربي-الإسلامي لفتح أبوابه أمام التبشير بحجة حرية الاعتقاد والتدين.

3- لا أظن أن المجتمعات العربية-الإسلامية، أو بعضها على الأقل، محصنة جيدا ضد التبشير كما كانت طيلة القرنين الماضيين.. وهذا لعلل كثيرة، من أهمها في نظري هو الطابع الفرداني للمجتمعات الحديثة Individualisme التي تعلي من شأن الفرد وتؤكد على حرية اختياراته... من المعتقد إلى الملبس، وذلك على حساب الجماعة وقيمها. فإذا أضفنا إلى هذا الانفتاح الكبير الذي يعيشه العالم حتى غدا قرية صغيرة... أدركنا أنه كما يمكن لفرنسي في الشمال أن يختار الإسلام، أيضا يمكن لعربي أو أندونيسي في الجنوب أن يدخل النصرانية. هذه مشكلة الهوية في عالم اليوم، وهي معقدة جدا[2].

لذلك لا يبدو أن الهويات اليوم تنتظم ضمن مستويات أفقية فقط كما في الماضي، بل تعرف الآن اختراقات عمودية في جميع الاتجاهات، فتحدث انكسارات داخل المجتمع الواحد الذي لا يعود قائما على هوية نمطية واحدة (مثال الوجود الإسلامي بأوربا).

---

[1]- حوار عنوانه ملاحظات على جيوبولتيك المسيحية في مجلة: Diplomatie, N°14, Juin 2005, p 58

[2]-راجع الترجمة التي أنجزتها – عن مجلة "علوم إنسانية" الفرنسية - بعنوان: "مفهوم الهوية تاريخه وإشكالاته". وقد نشرت بمجلة الكلمة اللبنانية، عدد 41 ، خريف 2003.

بالطبع لا يظنن أحد أنني أسوغ عملية التبشير، بل أحاول أن أعلل بعض نجاحاتها، وأن أنبه المغترين بفشل التنصير أيام الاستعمار إلى أن كثيرا من الأشياء تغيرت اليوم.

2- "علوم إنسانية":

مجلة "علوم إنسانية" مشهورة في الوسط الثقافي الفرنسي والفرنكفوني، وهي تصدر بانتظام غرة كل شهر.

كان أول مقال في العدد الذي أعرض له عن بول ريكور الذي توفي هذه السنة. كما أعادت المجلة نشر حوار سابق أجرته معه تناول المعالم الكبرى لمسيرته العلمية وتوفيقيته الفكرية.

الجمال:

ثم تضمن العدد ملفا عن "الجمال وقوانينه"، فلاحظ صاحب المقال الأول أنه توجد في المجتمعات الحديثة فروق حقيقية – وإن لم نكن واعين بها على الدوام- بين أهل الجمال من الذكور والإناث وبين غيرهم، في المكانة والأجور. لكن الجمال –عند كثير من خبراء العلوم الإنسانية والاجتماعية الذين يشتغلون على الموضوع- يتغير بتغير الأزمنة والعصور... فهذا ثابت وفق بعض الدراسات التاريخية، وإن كانت بعض العناصر في اعتبار الجمال مشتركة وكونية. وهذا ما تطرق له المقال الثاني بتفصيل من خلال جمال الوجه.. وبحث أيضا العلاقة بين الروح والوجه وفق مقولة: "جميل الوجه جميل الروح". وهذا ذكرني بحديث: التمسوا الخير عند حسان الوجوه[1].

أما المؤرخ فيكاريلو فيرى أن الجمال تركيب ثقافي، ويدلل على ذلك بدراسته قيم الجمال الأنثوي في الفترة ما بين الحربين، وهي المحدِّدة "لمذهب"

[1]-رواه الطبراني عن أبي خصيفة بإسناد ضعيف، كما في السراج المنير على الجامع الصغير، 330/1، لعلي بن أحمد العزيزي. دار الفكر، دون ذكر الطبعة والتاريخ. والجامع الصغير للسيوطي.

القرن العشرين في الجمال. فمن ذلك تحبيذ الطول على الامتلاء، وصغر الخصر، وتقليل كثافة الشعر وجمعه، والإكثار من الماكياج... مما عكسته إحدى أكثر الروايات مبيعا في تلك الفترة: "المسترجلة الصغيرة" لفيكتور مارغريت. لقد تغير مفهوم الجمال مع ظهور الحركة النسوية. ويشدد الكاتب أيضا على عامل الخروج إلى العمل ودوره في تشجيع هذا النوع من الجمال. ثم ظهرت عادة التمدد على الشواطئ والتعرض للشمس.. وأخذ التعري والتخفف من اللباس يزداد شيئا فشيئا. وفي حوار المجلة مع أحد الأساتذة الكتاب في الموضوع أشياء مشابهة.

ويبدو لي أنه لو تجرد بعض الباحثين مثلا لدراسة لباس المرأة المسلمة – المطبوع بالاحتشام– بالاستعانة بما وصلت إليه العلوم الإنسانية بالغرب في موضوع الجمال الإنساني لأفادنا كثيرا. فمن الأمور التي تدفع بعض النساء إلى التحجب – خصوصا بالمجتمعات غير المسلمة– أن الحجاب يجرد المرأة، أي يجعل من أنوثتها أمرا ثانويا في الشارع وفي الحياة العامة، وبالمقابل يبرز إنسيتها، أعني أنها إنسان لا موضوع جنسي. وهذا الوضع يريح هؤلاء النسوة اللواتي مللن من النظر إليهن دائما أو غالبا بمنظور الجنس والمتعة.. كما ترسخ ذلك السينما أو الإشهار التجاري.

الخوف:

الخوف اليوم:

وفي العدد ملف ثان عنوانه:" الخوف: من القلق الفردي إلى الهلوسات الجماعية". ويبدأ مقال "مخاوف اليوم" بملاحظة لجون دلومو – صاحب كتاب عن تاريخ الخوف بالغرب– خلاصتها أنه ربما كنا أكثر تعرضا للهلع وسلطته من أجدادنا، أي أشد هشاشة وخوفا. وفعلا يأتي اليوم الرُهاب – الفوبيا– على

رأس الاضطرابات العقلية الأكثر انتشارا مع الإدمان على الكحول والاكتئاب. وتؤكد علوم الأعصاب أنه إذا كانت بعض المخاوف غريزية، فإنه يمكن تعويد الإنسان على مخاوف جديدة. ولذلك يطرح علماء الاجتماع لغز استمرار الخوف في المجتمعات المتقدمة رغم محدودية الأخطار الواقعية، وهذا ما يشير إليه مثلا التطور الكبير لاقتصاديات التأمين.. ويبقى المصدر الأهم للتخوف المعاصر – بحسب المؤرخ جورج دوبي مؤلف كتاب "من عام 1000 ميلادي إلى 2000: في البحث عن آثار مخاوفنا"- هو العلم.. كما يأمل الإنسان اليوم في تجاوز مخاوفه بفضل.. العلم أيضا !! وهذه هي المفارقة الكبيرة.

أما مقالة الرهاب لكريستوف أندري – وهو طبيب نفساني ومؤلف عدد من الكتب في الموضوع- فتؤكد على أن الدراسات تبين اليوم أن كل واحد من اثنين – في الناس- يعاني من بعض الهلع المبالغ فيه، بينما تسجل عند كل شخص من عشرة حالة فوبيا مرضية. وعرض الكاتب لرؤية الطب النفسي للموضوع، وكذلك للمعالجة الذهنية السلوكية له، وكذا العصبية، وركز على النموذج "البيئي/النفسي/الاجتماعي".

صناعة الخوف:

وفي الملف مقال خاص عن آليات الخوف في الدماغ. لكن أهم ما تضمنه هو حوار المجلة مع عالم الاجتماع الأمريكي باري كلاسنر صاحب الكتاب الناجح "ثقافة الخوف" (نشر سنة 2000)، والذي أثبت فيه أن تجار الخوف يحرصون على إبقاء الأمريكيين تحت سلطة مخاوف كثيرة مضخمة أو غير حقيقية.. فهذا الكتاب يتكامل مع بعض أعمال نعوم تشومسكي التي تسير في الاتجاه نفسه.

ويعتبر كلاسنر أن حياة الأمريكيين لم تكن أكثر أماناً مما هي عليه الآن، رغم التهويل الإعلامي لبعض الأخطار، بل رغم أحداث 11 شتنبر. فإذا كان حوالي ثلاثة آلاف أمريكي قضوا في هذا الهجوم فإن السنة نفسها شهدت مقتل 43 ألف أمريكي في حوادث الطرقات. ويضرب كلاسنر مثالا آخر، ففي أواخر التسعينيات ساد قلق كبير من العنف الذي تشهده أماكن العمل، بينما تقول الإحصائيات إن احتمال مقتل الأمريكي في مقر العمل هو بنسبة واحد على مليونين. إن المستفيد من هذا التغليط هم من يسميهم كلاسنر بتجار الخوف: السياسيون الذين يقترحون في الانتخابات مخاوف لا برامج، والإعلاميون، واللوبيات، وشركات الأمن... ولهؤلاء استراتيجيتان: الأولى- تقديم حوادث معزولة وكأنها ظواهر عامة، والثانية - وهي أخطر- تقديم خبراء مزيفين إلى الجمهور، والزعم بأنهم يتكلمون بمنطق العلم.

وعادة ما تكون مواضيع صناعة الخوف: خصائص بعض الجماعات العرقية، أو أشخاص فرادى، أو ظواهر طبيعية... وقد تتغير هذه المواضيع، لكن التجارة ثابتة، كما يحدث الآن في وهم الخطر الإسلامي. ودور وسائل الإعلام هنا معقد، فهي جميعا تشارك في هذه التجارة، لكن بعضها يجتهد في تجنبها. وفي أمريكا تعتبر التلفزة المحلية أو الجهوية العنصر الرائد في هذه التجارة.

وفي جوابه عن سؤال المجلة: هل توجد بالولايات المتحدة أسباب معقولة وحقيقية للفزع، قال كلاسنر: إن العلل الحقيقية للخوف هي العشرة ملايين أمريكي بدون تغطية صحية، والملايين الذين يعانون من سوء التغذية، وآلاف المدارس غير المناسبة، وعدم احترام الحقوق والحريات بدعوى محاربة

الإرهاب.. بينما واقع الحال أننا ننفق عشرات الملايير على أخطار وهمية مصطنعة.

أدب الرعب:

أما المقال الأخير فعنوانه "في إثارة الرعب"، وهو يتناول مسألة الخوف من خلال الأدب والسينما... فصور الرعب تتجسد عبر مظاهر أربعة: خارقة، كالأشباح. أو طبيعية، كالكوارث والحيوانات الخطيرة. وبشرية، كالسحر والتحكم الجيني. ومادية، كالأشياء الجامدة تصبح متحركة...وهذه الصور تتمحور حول خمس قضايا رئيسة: الحيوانية، والشر، و الآخر، والخروج عن الطبيعة، والقرين أو الصنو Double.. أي إن هذه الصور تمس بهوية الإنسان وشخصيته المستقلة.

ويعتمد الحكي من أجل إثارة الهلع على ترك المتلقي في حالة من الغموض وقلق الترقب، وذلك بالاعتماد على أساليب سردية تجمع بين الواقعي والمتخيل والممكن. ولذا نجد الروائي الأمريكي المعاصر ستيفن كينغ، وهو بارع في القصص المثير، يعتبر أن الأساس في هذا النوع من الحكي هو الإيحاء، لأنه يدفع بالقارئ إلى تخيل الفظاعة التي يخفيها عنه الكاتب.

لكن ما هو هدف قصص الرعب: هل هو التخويف أم التحكم في الخوف والسيطرة عليه؟ في هذا الإشكال رأيان: الأول يعتبر أن الغاية الأهم لهذا الأدب هي إثارة الرعب، إذن فهي مضرة. والثاني – ومن أهله الكاتب– يرى أن لهذا الأدب وظيفة تنفيس المتلقي وتخليصه من مخاوفه عبر دفعه لتمثل الإرهاب المشاهد أو المقروء، كما لهذا الأدب دور أخلاقي في التنبيه على المخاطر التي تهدد الإنسان.

رأيي في "الخوف المعاصر":

لدي ملاحظتان على هامش هذا الملف، وأرجئ ذكر الثالثة إلى الحديث عن مجلة "قضايا سياسية واجتماعية" الآتي.

1- لم يتعرض ملف المجلة في تعليل تنامي المخاوف في عصرنا هذا إلى سبب رئيس اتضحت لي أهميته القصوى من خلال دراسة أكاديمية أنجزتها حول موضوع "الإسلام والمستقبل"[1]. هذا السبب هو قلق المستقبل، فالناس تخاف ليس فقط نتيجة مشكلات الحاضر، بل أيضا – وربما بالدرجة الأولى- بسبب غموض المستقبل. إذ يوجد اليوم في البشرية شعور عام وراسخ بأن العالم لا يسير في الطريق الصحيح، وأن الحياة لا تتطور وفق السبل السليمة. ولذلك يؤمن الكثيرون بأن انهيارا شاملا لأنماط الحياة المعاصرة سيحدث لا محالة، فقط لا يُعرف متى يكون ذلك.

وحق لهؤلاء أن يخافوا مما تخفيه لهم الأيام، فهذه الأعاصير المدمرة، وهذه السخونة المتصاعدة لطقس الأرض، وهذا النضوب المتسارع لمصادر الطاقة، وهذه الأمراض الغريبة المستعصية على الفهم بله العلاج (الإيدز، والسارس، وجنون البقر...)، وهذا الفقر المنتشر، وهذا التدمير العنيد للبيئة ولثروات الطبيعة وحياتها النباتية والحيوانية، وهذا التسلح المجنون، وهؤلاء السياسيين الكذبة والعسكريين الحمقى... كل هذا أكثر من كاف للخوف والقلق، إن لم يكن على مصيرنا فعلى مصائر أبنائنا.

---

[1] راجع كتابي: "الغيب والمستقبل"، ص 139 فما بعدها، مؤسسة الرسالة، بيروت، طبعة أولى. وقد حاولت تقديم بعض الأجوبة لهذا الإشكال في مقالي: "ظاهرة العصر: صعود اللاعقلانية"، منشور بمجلة الفيصل السعودية، عدد حزيران 2003.

وهذا لا يناقض ما سماه كلاسنر -عن حق- بتجارة الخوف، بل هذه هي المخاوف المشروعة والمعقولة.. ولكن تجار الخوف يقترحون غيرها ويوهمون بها الناس خدمة لمصالحهم الضيقة.

2- في الحقيقة لم يجب كتاب الملف عن سؤال وظيفة أدب الرعب، ولماذا يستهوينا ويعجبنا؟ وفي اعتقادي لا يمكن الحكم على هذا الأدب حكما واحدا، بل في الأمر تفصيل. فأدب الخيال العلمي مثلا غالبا ما يستبطن تحذيرا من مخاطر التطور العلمي والتكنولوجي ومن غرور الإنسان، فيؤدي وظيفة أخلاقية جيدة. من ذلك: رواية "فرانكشتاين" لماري شيلي، وبعض أعمال ويلز وستابلدون وكينغ. لكن بعض الأدب الآخر لا هدف له في الظاهر غير إرهاب القارئ أو المتفرج إلى أقصى حد ممكن، بل من الواضح أن بعض الكُتاب يتعمد ذلك ويجد متعة شخصية كبيرة في تصوير مجاني للبشاعة والفظاعة... تصوير يغدو بمثابة الهدف الرئيس للرواية.

في نظري يظل هذا السؤال قائما: ما هي وظيفة أدب الرعب بالضبط، ولماذا يتعلق به الجمهور المعاصر؟

ولا يحسبن أحد أن الجواب عن هذا الإشكال أمر هيّن، ففي دراستي الأكاديمية المشار إليها أعلاه وصلت إلى سؤال شبيه بهذا، واحترت في الإجابة عنه كما احتار كثير من المختصين في علوم الإنسان: لماذا يُقبل الإنسان المعاصر على الفنون الخفية التي كان الظن عاما بأنها اندثرت مع عصر العلم والحداثة، كالتنجيم والروحية والسحر والتنبؤ بالمستقبل والغنوصية... ونحو ذلك[1] ؟

---

[1]-انظر كتابي: "الغيب والمستقبل"، ص 173 فما بعدها.

هذا كله يؤكد حقيقة اجتماعية ونفسية، هي أن الإنسان المعاصر كائن بالغ التعقيد على المستوى الفكري والنفسي والسلوكي.. كما قال ألكسيس كاريل: الإنسان... ذلك المجهول[1].

1- عنوان الكتاب الشهير للمفكر الفرنسي: L'Homme, cet inconnu

3 – "قضايا سياسية واجتماعية":

هذه مجلة شهرية تدرس في كل عدد قضية محددة، غالبا ما تكون عملية أو مرتبطة بالحياة العامة.

الخبرة والدولة:

هذا هو ملف شهر أيار، خصصته المجلة لمؤسسة حديثة توسعت وتطورت كثيرا، واستعان بها السياسيون والإداريون والقضاة.. كل في مجال اهتمامه وفعله.. وهي مؤسسة الخبرة. وقد حددت المجلة الخبرة المعنية هنا بتلك التي تطلبها الدولة ومرافقها أو تستفيد منها.. وبجميع أصنافها التقنية والاقتصادية والسياسية. إذ يجسد موضوع الخبرة إشكالية العلاقة بين السلطة والمعرفة، في عالم يشهد انفجارا غير مسبوق للمعلومات، حتى إن أحد كتاب العدد يسمي النظام السياسي الحديث بالتقني–ديموقراطي.

تناولت المقالات بدايات ظهور طبقة الخبراء، وواقعهم الحالي، ومشاكل المهنة وأزمتها الراهنة، وأسئلة كثيرة عن مدى فعاليتها وعن مسؤولية الخبير وحدودها، وهل حياد الخبير أو استقلاله أمر ممكن...

في الحاجة إلى "إدوارد سعيد" آخر:

وهذا – في الواقع– موضوع مهم، وأود أن أشير هنا إلى أحد جوانبه السلبية، ومنها ما ذكره كلاسنر في الحوار السابق عن الخبراء المزيفين. إن هذه القضية في نظري تستحق أن تفرد بدراسة تكشف حقيقتها وآثارها وخطورتها... وهذا العمل لو تم بمستوى علمي عال ربما نجح في تحجيم هذه

الظاهرة... تماما كما فعل إدوارد سعيد في كتابه: الاستشراق. ونحن العرب والمسلمون تعنينا هذه القضية بالذات لسببين:

1- إن لبعض هؤلاء الخبراء دورا جد سلبي فيما يتعلق بتغطية الإسلام وسائر قضايانا في وسائل الإعلام الغربية التي تستدعيهم لتحليل مشكلات بالغة التعقيد تتعلق بالإسلام والعالم الإسلامي والغرب.. فيخلطون ويخبطون عن قصد أو جهل.. بينما لا تستدعي هذه الوسائل أساتذة غربيين أكفاء لهم معرفة حقيقية بهذه القضايا.

2- ولهؤلاء الخبراء دور سلبي آخر حين يزورون العالم الثالث لأغراض "التنمية"، فكثير منهم لا يعرف الواقع الحقيقي للبلاد التي يقدمون إليها الاستشارة، والمستوى العلمي والتقني لكثير منهم متوسط، يوجد في الكفاءات المحلية من هو أفضل منهم، كما أن دوافع الربح المادي أو التجسس حاضرة.

الضمان الاجتماعي:

عدد حزيران خاص بمؤسسات التأمين الاجتماعي: تاريخها وحاضرها ومشاكلها ووظيفتها... ومن المعلوم أن أكثر صناديق التقاعد والتأمين في دول العالم بدأت تعرف مشكلات كثيرة في أداء المطلوب منها، بسبب الشيخوخة المتزايدة للساكنة وانخفاض نسبة المواليد في أكثر الدول، بما فيها دول العالم الثالث.

4- "مجلة العالم الثالث":

هذه الدورية من أقدم المجلات الفرنسية، ومن أفضلها في حقل الدراسات العالمثالثية، وتصدر عن معهد دراسة التطور الاقتصادي والاجتماعي بالسوربون، جامعة باريس1.

وقد جاء عدد نيسان وأيار وحزيران خاصا بقضايا النمو السكاني وأثره على أوضاع المرأة، فرغم أن الجنوب لا يعرف النسبة نفسها من انخفاض الخصوبة، ولا الأسباب أو الآثار ذاتها لهذا الانخفاض... فإن الاتجاه العام لمجتمعات الجنوب هو تباطؤ التزايد السكاني[1]. وملف العدد يرصد التغيرات الجارية وتحولات أنساق الإنتاج والعلاقات بين الجنسين... وذلك من خلال أربع دول.

يتناول المقال الأول مسألة كيفية حساب مساهمة المرأة الإفريقية في الدخل الإجمالي الفردي والجماعي، حيث يأسف الكاتب بأنها لا تقدر جيدا.

وتحدث المقال الثاني عن الانخفاض السريع لمعدلات الخصوبة في إيران، حيث انتقلت من 6,4 أطفال لكل امرأة سنة 1986 إلى 2,1 أطفال سنة 2003، أي انخفاض حاد بنسبة 70%، وهو – كما تقول الكاتبة المتخصصة في علم السكان– من أسرع الانخفاضات في التاريخ. والسبب الأساس في اعتبارها هو الانتشار السريع للتعليم في أوساط الفتيات بالمدن والقرى. ورغم

---

[1]- اقرأ الكتاب الهام لفيليب لونغمان: المهد الفارغ، وليته يترجم إلى العربية. Philipe Longman : The Empty Cradle.

أن عمل المرأة بخارج البيت لا يزال جد محدود، فإن العلاقات بين الرجل والمرأة غدت داخل الأسر أكثر توازنا.

والمقال الثالث عن مدغشقر التي يعتبرها الكاتب من أكثر البلدان الإفريقية تحقيقا للمساواة بين الجنسين، ما انعكس على انخفاض الخصوبة، بالرغم من النسبة المرتفعة لحمل المراهقات.

والرابع يرصد تناقضا مركزيا في الصين، فتراجع معدل الخصوبة يعمل لصالح "تحرير" المرأة، لكن التطور الليبرالي الاقتصادي والسياسي لا يسير في الاتجاه نفسه... لأن سوق الشغل يقصي النساء.

واتجه المقال الأخير بالملف إلى دراسة حالة البرازيل الفريدة، من حيث إن الولادات انخفضت تلقائيا بدون تشجيع من الدولة أو وجود برامج تحديد النسل. فهذا تم بالأساس عن الطريق الطبي بتوفر الأدوية والأطباء وجميع وسائل منع الحمل... بمعنى وجود بنية طبية تسهل على المرأة التحكم في نسلها. لكن الوجه الآخر لهذا النجاح هو التعقيم المتزايد للفتيات في سن مبكرة، وارتفاع الولادات القيصرية، وعمليات الإجهاض، ووفيات الأمهات...

من الواضح أن الكُتاب سعداء جدا بهذا الانهيار المتسارع وغير المتوقع في عدد الولادات بمجتمعات الجنوب... والذي لم نعطه – نحن العرب والمسلمون– حقه الكافي من الرصد والمتابعة والدراسة، لنعرف آثاره على مستقبلنا ومستقبل موقعنا في العالم.

5- "مجلة العالمين":

هذه من أعرق المجلات الفرنسية، إذ تأسست سنة 1829. وهي الآن تصدر عشرة أعداد في السنة.

متفرقات:

وأول مقال في باب "دراسات وأفكار" كان عن إعادة انتخاب طوني بلير، وهو ما اعتبره الكاتب انتصارا جزئيا ومنقوصا. وكتب باتريس بولون عن ظاهرة الشكوى في عالم اليوم، حيث كثير من الناس يعلنون باستمرار عدم رضاهم وسعادتهم، حتى من الذين يعيشون في أوضاع جيدة، بل صوت هؤلاء أقوى وأعلى. هذه الظاهرة واضحة من خلال التلفزة، فكل الناس تشتكي، وهي معذبة برغبتها في المزيد من كل شيء. فهذه الحالة بهذه الحدة حديثة.

وفي الباب حوار مع أحد المحللين النفسانيين حول مستجدات الصحة العقلية، ومقال طويل عنوانه "أفكار حول تنظيم جديد لتنظيم قطاع الصحة".

نجد أيضا مقالا عن الرسام ديلاكروا، وآخر عبارة عن دراسة لكتاب الأب غاستور فيسار: "باكس نوسترا. دراسة في الوعي الدولي"، ألفه سنة 1936... ولم أخرج من هذا المقال بطائل، وهو نوع من الفلسفة المسيحية. ويدور مقال "العدالة وخلاص الإنسان عند دوستويفسكي" حول مسألة القتل ونفسية القاتل وحاجته إلى الاعتراف والجزاء.. في أهم أعمال هذا الروائي الكبير، وعلى رأسها: الأخوان كرامازوف. و الجريمة والعقاب.

مخدر الأمن:

أما الملف الرئيس في هذا العدد فكان عن "حالات الطوارئ" حيث يتميز عصرنا هذا بحاجة كبيرة إلى الأمن وبانتشار للخوف، وكانت كارثة تسونامي من أسباب اختيار المجلة هذا الموضوع. والمقال الأول – العقد الأمني- يبحث في جذور المشكلة.. بدأه الكاتب بعرض آراء ماكيافيلي في الموضوع، خاصة من خلال كتابه "خطابات"، قبل أن يعود إلى بعض فلاسفة الإغريق.. وينظر كيف اعتبر الجميع علاقة الأمن بالقوة، ثم درس الكاتب مفهوما قريبا هو الخلاص أو النجاة عند القدماء. أما بالنسبة للمحدثين – كهوبز- فتعني السلامة قبل كل شيء سلامة الدولة..

وخلاصة ما خرج به الكاتب أن العقد الأمني هو آفة الدولة الحديثة التي تستطيع بسهولة أن تغير النظام الديموقراطي الهش إلى نظام سلطوي أو دكتاتوري. والمقال – كما يفهم من خاتمته- نقد لدولة الأمن التي تفرض نفسها شيئا فشيئا على الشعوب الغربية بدعوى مكافحة الإرهاب.

أما الأستاذ رودريك فقد كتب عن "الشر: هذا العماء المعقول" فهي مقالة فلسفية في موضوع أصل الشر، وكيف نفسر وجود النقص والكوارث في الوجود.. وهذا من خلال عرض تطور فكر فولتير في هذه المسألة، كيف أعجب بفلسفة ليبنتز (أفضل العوالم الممكنة)، ثم كيف انقلب ضدها بعد الزلزال الذي دمر لشبونة سنة 1755[1].

---

[1]- هذه المشكلة قديمة -جديدة، وهي من أصعب القضايا الوجودية، لكنها هامة وذات صلة وثيقة بالدين والاعتقاد. أنوي بحثها بأسلوب فريد من حيث طريقة التناول والدراسة، وأتوقع أن تظهر بحول العلي القدير أولى هذه الدراسات أو الرسائل في سنة 2008.

وفي الملف مقال عنوانه "هل كان شكسبير يؤمن بوجود العناية الإلهية ؟" وذلك من خلال مسرحيتين: الملك لاير. وماكبيث. ولهذا أيضا علاقة بمشكلة الشر ووجود الألم. ويوجد مقال يتحدث عن الأخطار التي تهدد مدينة البندقية العائمة في الماء.

لغة الإعلام بعد الكوارث:

واختتم الملف بحوار مع الأستاذ جاك كيبار، صاحب كتاب: "علماء النفس في الميدان... أفكار حول بلاغة الكوارث" المنشور سنة 2003. هذا الكاتب درس الخطاب – الإعلامي وغيره– الذي يكون مباشرة بعد وقوع كارثة ما، فهو يحلل تغطية الإعلام للكوارث. وقد لاحظ أننا اليوم لا نتقبل الكوارث بسبب تراجع الإيمان الديني الذي كان يخفف من وقعها على الإنسان، ولذلك لم نعد نعتبرها شرا لابد منه أو ظاهرة طبيعية... بل نطالب بإلحاح التعويض عنها، أي التعويض عن الألم.. فهذا جديد في تاريخ البشرية. وكذلك نبحث عن كبش الفداء: لماذا لم يتوقع أحد الكارثة، ولماذا تتقاعس الدولة عن واجبها..؟ وجوابا عن سؤال المجلة: ألسنا نحن أيضا نطلب التفرج على الكوارث، عبر الإعلام، قال كيبار: نعم، اليوم يحب الجمهور أفلام الكوارث كما كان يحب في الماضي القريب أفلام الحرب. وقد لاحظ هذا الخبير شيئا طريفا، وهو أن المجاعة هي الكارثة الوحيدة التي لا ينقلها الإعلام كما هي على الأرض، بل يختار صورا معينة لا تصدم الجمهور كثيرا.

الكارثة والنهاية:

يبدو لي أن هذا الشغف المعاصر بصور الكوارث، خصوصا بالغرب، لا يمكن فهمه بمعزل عن ظاهرة طبعت الفكر الأوربي ولا تزال، وهي: فكرة النهايات: نهاية الدين، ونهاية التاريخ، ونهاية العالم... بل يمكننا أن نجد

أصولا لهذا المذهب الفكري في المسيحية نفسها، خاصة بتقريرها قرب نهاية الزمان. وقد تحدثت عن هذا الموضوع ببعض التفصيل في مقال لي[1]. وهذا بالطبع لا يفسر لوحده حب إنسان اليوم لرؤية الدمار.

[1]- راجع: عقائد النهاية في الفكر الغربي، مجلة التسامح، عمان، عدد 7.

6- "الدبلوماسية":

مجلة الدبلوماسية تصدر مرة كل شهرين، وتعنى - كما تقول- بالشؤون الاستراتيجية والثقافات الدولية.

قضايا دولية:

يبدأ هذا العدد الرابع عشر بحوار أجرته المجلة مع نجيب ميخائيل رئيس دير الدومنكيين بالموصل، تحدث فيه عن جذور المسيحية بأرض العراق وأوضاع المسيحيين بعد سقوط نظام البعث، مسجلا تفاؤله بالنسبة إلى المستقبل. كما نبه الأب نجيب على سوء تصرفات الاحتلال، وأبدى انزعاجه من نشاط الكنائس الإنجيلية الجديدة التي قدمت مع الأمريكيين. أما علاقة كنيسته مع فرنسا فإيجابية وتعاونية لأن الفرنسيين هم من أدخل الدومنكية إلى العراق سنة 1956.

وتحدث أحد الدبلوماسيين الفرنسيين في مقاله عن مسائل السياسة الخارجية والدفاع في الدستور الأوربي المقترح الذي يؤيده. وجاءت مقالات أخرى عن أزمة دارفور، ومما قاله موكيش كابيلا -المبعوث الأممي السابق بالخرطوم- بخصوصها: إنه كان لاكتشاف النفط بالسودان أثر هام في لفت انتباه القوى الكبرى إلى هذا البلد.

وفي باب البيئة كتب أوجين بيرج - دبلوماسي وكاتب- عن كتاب جماعي نسقه الإيكولوجي الدانماركي جورن لومبورغ عنوانه: "أزمات شاملة وحلول كاملة" (2004). والكتاب ثمرة عمل فريق بحث ترأسه لومبورغ، وهدف إلى معرفة أي المجالات تستحق أكثر أن توجه إليه مساعدات دولية

إضافية محتملة للعالم الثالث. واقتضى هذا تحديد أخطر عشر تحديات تواجه العالم، ودول الجنوب بالخصوص. ثم قدمت نتائج عمل الفريق إلى لجنة تشكلت من 10 من كبار الاقتصاديين، من بينهم ثلاثة حازوا على جائزة نوبل. وأخيرا نوقشت هذه القضايا وجها لوجه في إطار مؤتمر جمع الجميع، فالكتاب خلاصة لهذه المراحل كلها.

والنتيجة باختصار هي أن ما يجب أن تعطى له الأولوية القصوى مع كون تكلفته أقل وفائدته أكبر هي القضايا التالية: الأمراض المعدية، وعلى رأسها الإيدز، ثم المجاعة وسوء التغذية، ثم إزالة الحواجز الجمركية. وتوفير الماء والعناية الصحية. وجاءت مشكلتا الهجرة وسخونة الأرض في آخر اللائحة.

المساعدات الدولية: من يساعد من ؟

وعندي على هذا النظر تحفظان أساسيان:

1- يحتاج موضوع ما يسمى بالمساعدات الدولية إلى إعادة النظر فيه برمته، فهي – وفق بعض الدراسات- تعيق التنمية أكثر مما تحركها، إضافة إلى أن بعض الإحصائيات تبين أن العالم الثالث هو في الواقع من يساعد الدول الغنية. وليس هذا كلامي، بل هو رأي كثير من الخبراء.

2- تحفظي الآخر يتعلق بما اعتبره المؤتمر ضرورة رفع الحواجز الجمركية. لكن ليس من المؤكد -كما يرى بعض العلماء- أن تحرير التجارة الدولية يصب في مصلحة أكثر دول العالم الثالث. لنتصور مثلا أن تقوم الهند بفتح أسواقها للمنتجات الزراعية المنافسة الآتية من الخارج، يقول الخبراء:

سيؤدي ذلك إلى انهيار الفلاحة الهندية، وحرمان مئات الملايين من العمل والرزق، ودفع عشرات الملايين إلى الهجرة نحو المدن[1].

وقد لا يغيب هذا عن بال المؤتمرين، لكن يبدو أنهم التزموا – كما لاحظ ذلك بيرج- بنظرة اقتصادية نيوليبرالية صرفة. إن النظرية الاقتصادية ضرورية، ولكنها غير كافية.

جيوبولتيك المسيحية:

أما الملف الرئيس فعنوانه: "هل للمسيحية اليوم استراتيجية عالمية ؟" وفيه يؤكد صاحب مقال "المظاهر الجيوبولتيكية للمسيحية" على دور الدين في عصرنا، وأنه عامل سياسي واستراتيجي هام جدا. وفي حوار المجلة مع جون برنارد رايمون – وزير فرنسا السابق للشؤون الخارجية وسفيرها بالفاتيكان سابقا- كان السؤال الأول عن سبب عدم حضور الرئيس بوتين جنازة البابا بولس الثاني، وقد أرجع الوزير ذلك إلى البطريرك الروسي ألكسيس الثاني، فكنيسته ليست على وفاق مع الكنيسة الكاثوليكية التي يعتبرها الروس أكثر حداثة من كنيستهم، لذلك يتخوف الأرثذوكس من جاذبيتها، ولذا لم يستطع البابا الراحل زيارة موسكو أبدا. والأمر مشابه لهذا في الصين حيث تخشى القيادة السياسية من توسع النصرانية، وحيث الكنيسة السرية القريبة من الفاتيكان أكثر

---

[1]- بالنسبة لموضوع المساعدات الدولية:

1- راجع بالعربية كتاب الخبير الأممي السابق الدكتور المهدي المنجرة: الحرب الحضارية الأولى، خصوصا صفحات: 17-123-124-205-223-422، منشورات عيون، الدار البيضاء 1991. ومما جاء فيه أن 80% مما يدفعه البنك الدولي إلى العالم الثالث يعود إلى الاقتصاد الأمريكي، وتوجد وفق بعض الدراسات علاقة مباشرة بين المجاعة والمساعدات.

2- بالفرنسية: مقال "المساعدات الكاذبة للتنمية" في شهرية: Le Monde diplomatique, Juillet 2005, p8 ومقال آخر : "في ضرورة إصلاح نظام المساعدات الدولية" التي يرى الكاتب أنها تخدم "الواهبين" أكثر، في الشهرية نفسها، عدد أيلول 2004، ص 10.

وبالنسبة لموضوع تحرير التجارة والمبادلات العالمية انظر مقالا عن آثار ذلك على الهند في:

Le Monde diplomatique, Janvier 2004, Article : L'Inde rétive au libéralisme

أتباعا -فيما يبدو- من الكنيسة الرسمية. وأخيرا حدد المحاوَر أهم التحديات التي على البابا الجديد مواجهتها في: زواج القسس، والقضايا البيولوجية التي تثير أسئلة أخلاقية، والتقريب بين الكنائس المسيحية، وحوار الأديان، ومسألة الأرثذوكسية الروسية.

وفي مقالة صغيرة يضيف ألبريك لاكومب - باحث بمركز التحليل وتوقع المخاطر الدولية- تحديات جديدة للبابا الحالي: مشكلة تراجع المسيحية والتدين بها في بعض المناطق، وتحول الثقل العددي للمسيحية من الشمال إلى الجنوب، والتأثير المتصاعد للإنجيليين خصوصا بإفريقيا، والعلاقة مع الصين.

وتعرض مقال آخر لمنظمة أوبوس داي (أي عمل الله) التي ينتمي إليها أكثر من 85 ألف واحد في القارات الخمس، لا يشكل رجال الدين من بينهم أكثر من 2%. وهدف هذه المنظمة شبه السرية هو تمسيح الحياة العامة ناهيك عن الخاصة، إذ يعتقدون أنه يجب أن يكون حضور المسيحية ومبادئها في الحياة أقوى وأظهر. وهذه الجماعة قريبة جدا من الفاتيكان، وهي على المستوى العقدي "أصولية راديكالية"... إنها نوع من الحركة المسيحية العالمية[1].

وفي الملف أيضا مقال مختصر عن الكنيسة المارونية وتاريخها. وكتب أحد الأساتذة المختصين في الجغرافيا عن مكانة الدين في الدستور الأوربي،

---

[1] - للأسف أن القارئ العربي لا يعرف كبير شيء عن هذه الجماعة الكبيرة و المؤثرة، وهي التي كانت - على سبيل المثال - تسيطر عبر وزرائها على خمس السلطة في الحكومة الأولى للرئيس الإسباني أثنار. وكنت كتبت عنها باختصار في كتابي "الغيب والمستقبل"، ص 266. ويمكن أيضا مراجعة مقالة "انبعاث أوبوس داي بإسبانيا" بشهرية العالم السياسي الفرنسية:

Article: Résurrection de l'Opus Die en Espagne, in: Le Monde diplomatique, Juillet 1996,p3.

ملاحظا أن الاتحاد يواجه صعوبات في تحديد قيمه الأساسية. لكن لا يمكن اعتبار الدستور الأوربي لائكيا بوضوح، إذ هو يعترف بمكانة للكنائس. وقد تجنب هذا الدستور الحسم في القضايا الدينية أو ذات العلاقة – كشؤون العدل والتربية- مفضلا تركها لكل بلد بحسب تقاليده وقوانينه وصيرورته التاريخية الخاصة. لكن هذا لم يمنع الكاتب من الاستنتاج بأن الدستور الأوربي يحمل بصمات البروتستانتية لا الكاثوليكية.

وكتب لاكومب – المذكور أعلاه- عن علاقة الفاتيكان بالأمم المتحدة، فرغم أنه ليس دولة – بالمفهوم القانوني للدولة- إلا أن الفاتيكان نجح في ولوج الهيئة الأممية، وله دور في بعض مؤسساتها، مع اختياره فيها صفة مراقب فقط. واليوم يحتفظ الفاتيكان بعلاقات دبلوماسية مع أكثر دول العالم، وله صوته في القضايا الدولية الكبرى، خاصة الحقوقية والإنسانية منها.

ثم كتب لاكومب خلاصة لإحدى الدراسات المستقبلية حول أوضاع الأديان في أفق سنة 2020، معززا ذلك بخريطة جغرافية استشرافية. وهذه أهم نتائج الدراسة: تقدم البروتستانتية في أمريكا الوسطى والجنوبية على حساب الكاثوليكية. وتقدم التبشير البروتستانتي والإنجيلي بإفريقيا الاستوائية والجنوبية. وتقدم الإسلام بآسيا الوسطى. ونمو الشعور الديني بروسيا والصين.

وملاحظتي الأهم هنا هي أن مستقبل الدين – وفق هذه الدراسة- جيد، وأن صحوة عامة لمختلف الأديان قادمة. والمنطقة الوحيدة في العالم التي ستعرف تقدم اللادينية هي أوربا الغربية. وأنا أقول: في 2020 أيضا – وما

بعدها- سيكون وزن هذه المنطقة بالنسبة للعالم أقل وأضعف سكانيا واقتصاديا وسياسيا[1].

الأرثذوكسية:

وفي الملف مقال عن خلاف قائم اليوم بين بطركية موسكو وبطركية استانبول، وهذا الخلاف يمكن أن يقسم الكنيسة الأرثذوكسية إلى قسمين: بطركية موسكو التي تجذب معها العالم السلافي والشرق أوربي، وبطركية استانبول ومعها العالم الهليني وكنائس الشرق العربي وإفريقيا... ولهذا آثاره السياسية أيضا.

وكتب كلاوكن – من المعهد الفرنسي للاستراتيجيا- عن العلاقة بين الدولة والكنيسة الأرثذوكسية بروسيا، وهي علاقة هادئة، بل تعاونية. وهذه عناصرها:

1- تعرف روسيا انبعاثا مزدوجا للهوية الوطنية وللمسيحية.. في إطار تأكيد الروس على فرادة حضارتهم ومصيرهم.

2- يعتقد كثير من رجال الدولة أن الأرثذوكسية من أهم عناصر الهوية الروسية، وأنها قادرة على تعويض الإيديولوجيا الماركسية. ولهذا وافق بوتين على إدخال مادة الثقافة الأرثذوكسية في التعليم، وهي اختيارية، كما وافق على عمل رجال الكنيسة بين الجيش.

3- كلا من بوتين والكنيسة لا يريد تدخل الغير فيما يعتبرانه أرضهم ومجال تأثيرهم، فلا بوتين يريد الغرب السياسي ولا البطريرك ألكسيس الثاني يقبل بوجود الغرب الكاثوليكي أو البروتستانتي. لهذا حصر قانون 1997

---

[1] - من افتتاحية إينياسيو راموني "للعالم السياسي":
Editorial : China méga-puissance, in: Le Monde diplomatique, Août 2004.

الديانات التقليدية – أي "المشروعة"– بروسيا في أربعة فقط: الأرثذوكسية، والإسلام، واليهودية، والبوذية.

قلت: هذا كله مفهوم ومتوقع، فروسيا لم تكن أبدا جزء من الغرب... جانب من الغرب كان جزء من روسيا كما كان جانب من الشرق الإسلامي ولا يزال جزء آخر منه، فروسيا عالم مستقل[1].

آخر العدد:

وحاورت المجلة أيضا أحد المختصين حول جذور العلاقة الثابتة بين البروتستانتية والسياسة الخارجية الأمريكية. وكتب الأستاذ بشارة خضر – مدير مركز بحوث بجامعة لوفان ببلجيكا– مقالا طويلا عن مشروع الشرق الأوسط الكبير محللا دوافعه وأهدافه، ولماذا تحفظ عليه العرب والأوربيون، ومتوقعا فشله ومعترفا في الوقت نفسه بأثره الإيجابي في تحريك النقاش العربي حول الإصلاح وضرورته. وفي باب الاثنولوجيا السياسية تطرق هذا العدد لسكان أقصى شمال شرق سيبريا.

تعليق: المسيحية في الفكر الإسلامي.

أود هنا أن أسجل ملاحظة تتعلق بنا، على هامش قراءتي لهذا الملف عن المسيحية، وهي: يظهر لي – والله أعلم– أن في موقف الفكر الإسلامي المعاصر من المسيحية شيء من الاستعلاء واللامبالاة. أما الاستعلاء فمفهوم، لأنه ينبع من عقيدتنا الإسلامية التي تثبت تحريف المسيحية، وأيضا من ملاحظة تناقضاتها العقلية وأخطائها التاريخية... أما ما لا أفهمه فهو الإهمال واللامبالاة. نحن مثلا لا نعرف كبير شيء عن البابا الراحل ولم نهتم به

---

[1]- انظر كتب المؤرخ الروسي بارتولد المتوفى سنة 1930، ومنها: تاريخ الاستشراق في أوربا وآسيا.

وبدراسة أفكاره وأعماله وأدواره في عصرنا، رغم أنه من أهم الشخصيات المؤثرة في عالم النصف الثاني من القرن العشرين... فما هي الدراسات العربية عن هذا الرجل. وكذلك لا نعرف شيئا عن البابا الجديد بينوا السادس عشر. وقد حاولت تكليف بعض طلبتي بالباكالوريوس- في البحوث التي يكللون بها دراستهم- بدراسة عامة لهاتين الشخصيتين. لكن لو تم هذا على مستوى الدكتوراه كان أفضل.

تظل المسيحية – رغم كل شيء- مؤثرة في عالم اليوم، ولها حضورها النوعي والعددي، كما لها تأثيرها في مجريات الأحداث.. تأثير كثيرا ما يكون خفيا غير بارز. فالواجب إذن هو دراسة عالم المسيحية باستمرار، لأنه ليس من الماضي فقط، بل هو حاضر أيضا. ولا يجب أن تقتصر هذه الدراسة على النواحي العقدية فقط، وهي التي يقوم بها علم مقارنة الأديان، بل أيضا تدرس سياساتها وأفكارها الحديثة وتجاربها وكيفية مجابهتها لقضايا عصرنا...

ومن ناحية أخرى يوجد اليوم فكر مسيحي معاصر، كما يوجد الفكر الإسلامي المعاصر، وكلاهما يشترك – بحكم خلفيتهما الدينية- في مجابهة أسئلة حرجة واحدة، كما في قضايا المرأة، والدعوة أو التبشير، وتطورات علم الإراثة، وحقوق الإنسان، والنزعة الفردانية، وحوار الأديان، ومشكلة اللادينية... ونحو ذلك. أعني أنه توجد إمكانيات واعدة للاستفادة المتبادلة بين الفكرين. فمن لهذه المهمة ومتى نقوم بها؟

7- "إيستوريا":

مجلة إيستوريا – أي التاريخ باللغة اللاتينية- من أقدم المجلات الفرنسية المتخصصة في حقل التاريخ. وأكثر من يكتب فيها أساتذة جامعيون وباحثون مختصون في التاريخ، وعلوم الإنسان على العموم.

تمزج المجلة بين قضايا تاريخية وأخرى معاصرة، وشعارها: إدراك الحاضر في ضوء الماضي. وترمي إلى الوصول إلى أوسع جمهور ممكن من محبي التاريخ، لهذا تتجنب نشر الأبحاث الجزئية الدقيقة التي لا يقرؤها عادة إلا قلة محدودة من أهل الاختصاص.

أ-عدد أيار:

وهذا العدد أهم وأغنى من عددي حزيران ونيسان، وذلك لاحتوائه على ملف عنوانه على الغلاف: "الدين والجمهورية: ألف سنة من المناقشة الحامية".

الذكرى المائوية لقانون فصل الدين عن الدولة:

يتضمن هذا الملف الأبحاث التي شارك بها مجموعة من أفضل الخبراء الفرنسيين في الموضوع، والتي ألقوها في فبراير 2005 أمام "أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية بفرنسا". وذلك بناء على طلب الوزير الأول الفرنسي أن تحيي الأكاديمية الذكرى المائوية لصدور قانون فصل الكنيسة عن الدولة سنة 1905 بندوة شارك فيها 150 باحثا.

علمانية واحدة أم علمانيات:

المقال الأول –في الملف- يتحدث عن الاستثناء الفرنسي الذي جعل من فرنسا الدولة الوحيدة التي تُحدد نظامها الجمهوري بأنه لائكي، بل إن مصطلح اللائكية Laïcité هو من أصل فرنسي وله علاقة خاصة بالتاريخ الفرنسي، ما

أوجد صعوبة في ترجمته إلى اللغات الأخرى. ويقول الكاتب بأن أوربا تمارس فصل الشؤون السياسية عن الدينية، لكن بشكل نسبي لا مطلق وحاد كما في حالة فرنسا. ولهذا نجد أن الملك في بريطانيا هو في الوقت نفسه رئيس الكنيسة الأنجليكانية، وفي الدانمارك لابد أن ينتمي الملك إلى الكنيسة الإنجيلية اللوثرية التي تتمتع بدعم الدولة بمقتضى الدستور. أما إسبانيا فقد وقعت اتفاقات مع الفاتيكان، وينص دستورها على التعاون بين الدولة والأديان. وفي ألمانيا يُعترف للأديان بوظيفة أو رسالة عمومية، وتخصص لها بعض الضرائب.

ولذلك أقول دائما – كما في مقالات سابقة-: إن من الخطأ استلهام النموذج الفرنسي في العلمانية، لأنه نموذج متطرف ومعزول حتى في أوربا نفسها. ومن الأبحاث التي أقترح على طلبة الدكتوراه إنجازها الكشف عن الجذور العميقة لهذا التطرف الفرنسي الذي يكاد يعادي الدين مطلقا، والذي برز جيدا مع ثورة 1789[1]. إضافة إلى أن روح الإسلام يختلف عن روح المسيحية، وأن الظروف التاريخية لكل من أوربا والعالم الإسلامي مختلفة. لذلك لا يمكن اعتبار الإسلام شأنا شخصيا لا يعدو التعبد كما يفعل غلاة العلمانيين. ويبقى مجال الاجتهاد واسعا في تنظيم العلاقة بين الدين والحياة العامة وفق قواعد وضوابط معينة.

---

[1]- من المفيد لمن يريد التوسع في هذا الموضوع قراءة كتابين يدافعان عن رؤيتين متعارضتين في الجذور الفكرية للثورة الفرنسية:

Daniel Mornet : Les origines intellectuelles de la Révolution française (1933).

Roger Chartier : Les origines culturelles de la Révolution française (1990).

تاريخ الفصل بين الدولة و الكنيسة:

يبحث المقال الثاني – وهو لجون فابيي، كاتب معروف– عن الجذور الأولى لتصادم السلطتين الدنيوية والكنسية. فسجل دور كتاب "مدينة الله" للقديس أغسطين في الموضوع، وأشار إلى مشكلة المطالب الترابية لبابوات روما الذين اعتبروا أنفسهم ممثلي المسيح في الأرض. وكان للبابوات إينوصو الثالث وإينوصو الرابع وبونيفاس الثامن... دور خاص في بسط سيطرة الكنيسة على حساب الأباطرة. ثم بين الكاتب كيف نشأ التفكير الفلسفي في هذا الموضوع مع الأرسطيين وغيرهم.. وصولا إلى الفكر المدافع عن ملكية حاكمة مستقلة تماما عن الكنيسة مع دانتي ومارسيل دوبادو وأوكام.. في فجر النهضة.

أما جون تولار – رئيس الأكاديمية والمتخصص في نابوليون– فقد كان مقاله عن الصراع بين الثورة الفرنسية والكنيسة إثر قرار تأميم الكنائس وممتلكاتها الذي جاء لغرض سد العجز في ميزانية الدولة، وتبع ذلك اضطهاد شامل لرجال الدين، الشيء الذي دفع غريغوار – وهو من أهم القسيسين القريبين من الثورة– إلى القول بأنه بينما توجد حرية العبادة والاعتقاد في تركيا والجزائر والمغرب.. تنعدم بفرنسا. وفي خضم هذا الصراع جاءت فكرة فصل الدين عن الدولة، قصد بها البعض إنقاذ الكنيسة من تسلط الدولة، في حين أراد بها البعض الآخر تدميرها أكثر. لكن هذا الفصل الحاد فشل نسبيا. وهنا يأتي دور نابوليون الذي أسس لعلاقة جديدة هي اتفاقية 1801 Concordat مع البابا، بموجبها ضمنت الكنيسة وجودها واستمرارها لكنها خسرت استقلالها.

ويتحدث مقال كلود نيكولي – عضو المعهد Institut– عن كيفية تحول اللائكية في النصف الثاني من القرن 19 إلى ديانة للدولة، من خلال قضية بارزة هي توفير التعليم العمومي المجاني وعلمنته. ذلك أن قسما هاما من الطبقة السياسية الفرنسية كانت ترى أنه يلزم لضمان استمرار الجمهورية ونجاح مهمتها وضع عقد اجتماعي وسياسي بين المواطنين المقتنعين بمبادئ الجمهورية. ولتحقيق هذا العقد يجب الرجوع إلى المدرسة فتكون لائكية تماما وتزول الازدواجية التي سمحت باستمرار تعليم تشرف عليه الكنيسة. وهذا ما قام به الرئيس فيري.

وكان مقال جون فوير – كاتب ووزير سابق– عن قانون 1905، بمقتضاه لا تعترف الدولة في المجال العام بأي دين، ولا تقدم أي دعم مادي أو معنوي للأديان، بل تحذف المخصصات السابقة في ميزانيات الدولة للكنائس ورجالها وأنشطتها. وكل استفادة من المال العام تتطلب من الجهة الطالبة التحول إلى هيئة الجمعية والخضوع لقانون الجمعيات. وقد ساهمت الحربان الكونيتان في تهدئة العلاقة بين الدولة والكنيسة بفرنسا.

الدين الجمهوري !

أما موضوع المقال الأخير في الملف فهو كيف شكلت الجمهورية "ديانتها" الخاصة بعد أن ألغت الثورة المرحلة الملكية وما ارتبط بها. يتجلى ذلك مثلا في البدء بتأريخ جديد مع السنة الأولى للثورة، وفي وضع احتفالات سنوية جديدة وأشعار وشعارات خاصة بالجمهورية التي ألغت التثليث المسيحي لصالح تثليث آخر، هو شعار الثورة: العدالة، والمساواة، والإخاء. بل ظهر نوع من تأليه الوطن.. قلت: الحقيقة هي أن الإنسان لا يحتمل الفراغ العقدي، وإذا أزيحت ديانة ما عن مسرح الحياة فلابد أن تعوضها ديانة أخرى،

أو مذهب إنساني آخر سرعان ما يكتسي طابع الدين.. هذا ملاحظ في الثورة الفرنسية، ثم فيما بعد في الشيوعية. ولذلك قال الفيلسوف اليوناني فلوطرخس منذ ألفي عام: وُجدت مدن بلا قصور، ومدن بلا مسارح.. لكن لم توجد أبدا مدن بلا معابد[1].

باقي العدد:

أما سائر مقالات العدد فقد كان أولها عن أسرار انتخاب البابوات عبر التاريخ، كيف يحدث وما طقوسه. والثاني عن ذكرى توقيع ألمانيا معاهدة الاستسلام في 7و9 أيار 1945. لكن الشهر نفسه عرف – بالنسبة لفرنسا– بداية حرب أخرى مع قتل 15ألف جزائري في صدامات مع حكومة الاستعمار. ثم مقال عن قصة نشوء أشهر مدينة ألعاب في العالم، وهي لاس فيغاس بأمريكا. ومقال عن قانون جديد يعطي للمرأة الحق في الاحتفاظ باسمها بعد الزواج وعدم استبداله باسم الزوج. ونحن لا نعرف في العالم العربي هذه المشكلة، لأن ذمة المرأة مستقلة. ومقال آخر عن الملكة ماري دومدسيس التي كان لها نفوذ كبير في بداية القرن 17 الفرنسي. وآخر عن ظاهرة لجوء الناس – وخاصة من الطبقة الراقية– إلى الأديرة لأخذ الراحة وتهدئة الروح، أو لاعتزال الحياة، وذلك إما لفترة مؤقتة أو حتى الوفاة. قلت: هذه الظاهرة مع قدمها لا تزال مستمرة، وتعكس القلق المتزايد الذي يعيشه الإنسان المعاصر وتعبه من الحياة.. وما الإدمان على الكحول أو المخدرات إلا نوع جديد من الهروب من الواقع المعيش. أما المؤرخ جون دي كار فقد كتب عن لغز موت ولي عهد الإمبراطورية النمساوية– الهنغارية: رودولف دوهابسبورغ، مرجحا

---

[1]- انظر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب، لجفري بارندر، ترجمه عن الإنجليزية إمام عبد الفتاح إمام، سلسلة عالم المعرفة، عدد 173، 1993، الكويت.

علاقته بصراعات الدول الأوربية عشية الحرب العالمية الأولى. وآخر مقال في هذا الكشكول كان عن تقسيم ألمانيا غداة انهزامها في الحرب الثانية إلى أربعة مناطق يديرها الحلفاء. وكيف استطاعت ألمانيا النهوض من جديد.

شبح "الخطر الألماني"؟

وقد لاحظت في قراءاتي السياسية أنه رغم جميع التطورات والتغيرات الحاصلة في أوربا والعالم منذ الحرب العالمية الأخيرة، فإن قسما من النخبة السياسية – وبفرنسا وبولونيا على الخصوص- لا تزال تحتفظ في أعماقها ببعض القلق و"الخوف" من ألمانيا، فكأن غيوم التاريخ لم تنقشع جميعها من سماء أوربا. وقد برز هذا القلق خاصة حين اندمج شطرا ألمانيا في أيلول 1990 ضمن دولة واحدة هي الأقوى اقتصاديا والأكثر سكانا بالاتحاد الأوربي، حيث عارضه البعض. وظهر على السطح هذا القلق أيضا في هذه السنة التي تصادف الذكرى الستين لنهاية الحرب، وهذا ما يفسر حضور موضوع الحرب الثانية في كثير من أعداد الدوريات الفرنسية لهذه السنة. واليوم توفر فرصة الجدل القائم بخصوص منح ألمانيا مقعدا دائما بمجلس الأمن فرصة لمراقبة الموقف الحقيقي لسياسيي المنطقة من الصعود الألماني الهادئ والثابت.

ب-عدد حزيران:

أما هذا العدد فركز على موضوع أوربا، ومناسبته الدستور المطروح للاستفتاء. وفي هذا الإطار أعدت المجلة بالتعاون مع نخبة من أساتذة جامعة السوربون ملف "نحن وأوربا"، حاولت فيه تتبع ظروف تشكل أوربا و"الهوية الأوربية" منذ العصر اليوناني إلى اليوم. ذلك أن الكثيرين اليوم يتساءلون هذا

السؤال المعقد جدا، وإن بدا في الظاهر سهلا: ما هي أوربا، وماذا تعني، وهل هي هوية قائمة بذاتها؟

أوربا واليونان والمسيحية:

يتحدث المقال الأول عن اليونان وبداية بروز قارة أوربا. والمقال الثاني كتبه الأستاذ ميشيل سوت بعنوان "المسيحية توحد الغرب"، نفى في بدايته هذا التطابق الذي يتبادر إلى الذهن بين أوربا والمسيحية. فهذا الدين جاء من الشرق، لكنه سرعان ما هيمن على بلدان الإمبراطورية الرومانية التي بدورها فرضت على مناطق واسعة من أوربا لغتها اللاتينية. ثم ما لبثت المسيحية الأوربية أن انقسمت إلى شرقية أرثذوكسية وغربية كاثوليكية، بدء من سنة 395م وانتهاء بـــ 1054م. والذي يعني الكاتب بالدرجة الأولى هنا هو غرب أوربا التي عرفت شكلا من المزج بين الإمبراطورية والكاثوليكية في عهد الكارولنجيين، خصوصا زمن شارلمان. لكن الوحدة الدينية لا السياسية هو أهم ما نجح فيه هؤلاء، والذين ساهموا كثيرا في دعم البابا وبسط سلطته الروحية على جميع المسيحيين، وفي مساعدته على تنظيم الكنيسة وتجديد عملها. وبذلك يمكن اعتبار المسيحية عنصرا هاما جمع بين البلاد الأوربية المختلفة فيما بينها.

جامعات العصر الوسيط بين العالمين: الإسلامي والأوربي:

ثالث المقالات عن الجامعات التي بدأت تظهر في مختلف أرجاء أوربا انطلاقا من القرن 13م، فشكلت محاضن لمعرفة موحدة وبلغة واحدة هي اللاتينية، وكان لها برامج وشهادات متشابهة. فكأن مجتمع المعرفة بأوربا كان واحدا، أو على الأقل كان منسجما بعضه مع بعض.

والغريب أن الكاتب جاك فيرجي مع كونه مختصا في التاريخ الثقافي للعصر الأوربي الوسيط يقول: إن الجامعات – كما نعرفها اليوم– هي بلا جدال اختراع أوربي في العصور الوسطى... ذلك أن العناصر المؤسسة للجامعة والتي ذكرها الكاتب قد وُجدت أولا بالعالم الإسلامي، حيث تناثرت في أرجائه مئات المدارس العليا.. يكفي أن أذكر المدرسة النظامية ببغداد وجامعات قرطبة والأندلس... فقد كانت هذه المدارس بمثابة مؤسسات حقيقية، فيها أساتذة مختصون، ولها نظام فريد في إعطاء الشهادات للمتخرجين هو ما يسمى في تراثنا بالإجازة[1]، والتدريس متنوع بحسب مستويات الطلاب، من الابتدائي إلى النهائي. وكان لأكثر هذه المدارس استقلال مالي بفضل نظام الوقف الإسلامي الذي كان يوفر أجور الأساتذة ومنح الطلاب. بل عرف المسلمون شكلا خاصا من التعليم العالي، وهو ما يسمى اليوم بـ: المستشفيات الجامعية، أو البيمارستان في تراثنا القديم.

ثم إلى جوار المدارس وجدت بنيات موازية معينة على التعلم، أذكر منها: 1 –المكتبات العامة والخاصة، 2– دور الترجمة، 3– صناعة الورق وسوق نسخ الكتب، 4– الرحلة في طلب العلم[2].

والمقصود أن فئة من مثقفي الغرب لا تزال تؤرخ لكل شيء انطلاقا من أوربا، وفي إطار المركزية الغربية التي تكاد تختزل العالم في الغرب.

1- يمكن للقارئ الاطلاع على نظام الإجازة من خلال كتب مصطلح الحديث، مثل مقدمة ابن الصلاح الشهرزوري، أو الكفاية للخطيب البغدادي، أو أصول الحديث لعجاج الخطيب...

2- راجع: من معالم الحضارة العربية الإسلامية، لقصي الحسين، ص 170. المؤسسة الجامعية، بيروت. ط1، 1993. الحضارة العربية الإسلامية، دراسة في تاريخ النظم، لرحيم الهاشمي وعواطف شنقارو، المكتبة الجامعية بليبيا، 2002.

باقي مقالات الملف:

والمقال الرابع يبحث نمو الفن التشكيلي في بلدان أوربا، وكيف توحدت الثقافة الفنية رغم الخصوصيات المحلية.

والفكرة الأساسية للخامس هي أن أوربا منذ عصر النهضة عرفت انقسامات سياسية ودينية حادة بينما تطور فيها شكل من الثقافة المشتركة، لعل من أبرز مظاهرها: ثقافة الأنوار في القرن 18.

ويأتي المقال السادس ليكشف عن الوجه الآخر لأوربا التي عرفت خلال القرن الأخير حربين مدمرتين أضعفتا القارة العجوز لصالح أمريكا وروسيا.

ويتساءل صاحب المقال السابع كيف انتقلت أوربا في بداية القرن العشرين من القوة العالمية الأولى سياسيا واقتصاديا وعسكريا وثقافيا... إلى حالة يصفها بانحطاط نسبي في جميع المجالات مع نهاية القرن المذكور.

شؤون تاريخية:

وفي العدد مقالات متنوعة في قضايا تاريخية. فمنها: الغزو الياباني لكوريا باعتبارها معبرا لمهاجمة الصين سنة 1592. إذ كوريا أقرب جغرافيا إلى اليابان. وهذه الخلفية التاريخية لصراعات المنطقة لم تغب كما كشفت ذلك مؤخرا أزمة المقررات الدراسية لمادة التاريخ في اليابان. ويوجد عدد من المقالات عادت إلى أيام أيار وحزيران 1940 التي شهدت تقدما وانتصارا سريعين لألمانيا رغم تفوق الحلفاء في العدد والعدة.

وأطرف ما في المجلة مقال عن محاكمة الحيوانات بأوربا في عصرها الوسيط. وذكر الكاتب مثالا لأنثى الخنزير قتلت رضيعا صغيرا، فأُلقي عليها القبض وسجنت، وخصص لها دفاع. ثم حكم عليها القاضي بالقصاص، فعذبت وعلقت وأعدمت حرقا. ويقول الكاتب إن نحو 60 محاكمة مثل هذه جرت

بمملكة فرنسا بين 1266 و1586، يعني مما سجله المؤرخون. وكان يعتبر صراخ الحيوان المسكين تحت التعذيب بمثابة اعتراف.

وأين هذا الظلام من قول النبي عليه الصلاة و السلام: العجماء جرحها جبار. أي ما تفعله البهيمة من الإضرار بالنفس أو بالمال هدر لا حكم له، إلا إذا كان بسبب بشري كسائق الدابة فهو الضامن[1]. وفي تراثنا أن عامل عمان كتب إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز: إنا أتينا بساحرة، فألقيناها في الماء فطفت. فكتب إليه عمر: لسنا من الماء في شيء، إن قامت البينة، وإلا فخلّ سبيلها[2].

---

[1]- الحديث رواه الستة وغيرهم عن عبد الرحمن بن عوف، واتخذه الفقهاء قاعدة لهم. راجع نموذجا لهذا الوعي المتقدم في: شرح القواعد الفقهية، لأحمد الزرقا، قاعدة 93: جناية العجماء جبار، ص 457. دار القلم، دمشق، طبعة 3، 1993.

[2]- تأويل مختلف الحديث، لابن قتيبة، ص 173. دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1985.

8- "إيسبري":

هذه من أهم المجلات الفكرية الفرنسية على الإطلاق، ويكتب فيها كبار أهل الفكر والعلم من القوم، ومن غيرهم مما تترجمه المجلة إلى الفرنسية..

التاريخ بين الحتمية والحرية:

كتبت الأستاذة سابيانا لوريكا مقالا بالإيطالية عن "تولستوي في مواجهة شكية التاريخ"، وغرضها تتبع آراء الروائي الكبير في فلسفة التاريخ من خلال الحرب وقصتها الطويلة التي يحكيها في رواية "الحرب والسلام". وهنا تستنتج الكاتبة أن تولستوي يعطي أهمية للأفراد العاديين في التاريخ الذي لا يصنعه العظماء وحدهم. والحرب –بالخصوص– آلة مستقلة، حتى نابوليون كان يفعل ما يجب أن يفعل، فالاختيار محدود. لذا لا وجود للحرية الفردية، بل لا وجود للإنسان إلا ضمن مجموع هو أحد أجزائه. وليست الأسباب الكبيرة من يحدد مجرى التاريخ، بل سلسلة لانهائية من العلل الصغيرة، فحرب نابوليون مع الروس كانت ستختلف لو جرت بعض الأحداث البسيطة على منوال آخر. ولذلك يتسم التاريخ بطابع اللاعقلانية، حتى النظام الذي نضفيه على مجريات الحرب غير حقيقي وغير دقيق.. كأن قدرا عظيما هو الذي يسير الأمور في الوقت الذي يتوهم الناس أنهم يتحكمون في مصيرهم جيدا [1].

---

[1]- تدل هذه الأفكار عن فلسفة التاريخ التي استخرجتها الكاتبة من الرواية على عبقرية صاحبها تولستوي. ومنها تأكيده على دور الحوادث الصغيرة في تغيير مجرى التاريخ. وقد تعرضت لهذا الموضوع في كتابي: "الوجود بين مبدئي السببية والنظام"، خصوصا من خلال نظرية فيزيائية - سرعان ما امتد تأثيرها إلى العلوم الإنسانية- وهي: نظرية الفوضى Chaos، والتي أسست مفهوم SCI، أي: الحساسية المفرطة تجاه الظروف الأولى. انظر هذه القضايا وغيرها – كالحتمية- في كتابي المذكور، نشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

إن النقاد مختلفون حول مدى شكية تولستوي، ونظريته في قدرية التاريخ أو حتميته.. كما يختلفون على مدى يأس تولستوي وحدود التراجيديا الإنسانية في روايته وفكره. ورأي الكاتبة أن تولستوي الروائي يقرأ التاريخ بشكل مختلف عن تولستوي المؤرخ، حتى في عمل واحد كـ "الحرب والسلام"... أي بشكل أكثر تفاؤلا وأملا.

المجاز والفلسفة:

وكتب جون كلود مونو -فيلسوف معروف- مقالا -عنوانه "فلسفة القرن العشرين واستعمال المجاز"- انطلاقا من أعمال الألماني هانس بلامنبورغ (1920-1996) التي دعت إلى تأسيس "علم المجاز"، وإعادة قراءة الفلسفة من خلال تحديد وتأريخ المفاهيم والمصطلحات. وبيّن لماذا رفض جاك دريدا الدعوة، ورد عليه.

إن وظيفة المجاز هي ضمان الاشتراك في مفهوم تأويلي، أو دعم محاولات تصحيح مفهوم لم يضبط بعد. ولمزيد من البيان عرض الكاتب نموذجا تطبيقيا كتبه بلامنبورغ بعنوان: "النور باعتباره مجازا للحقيقة"، أي تطورات مفهوم الحقيقة من خلال تحولات استعمال لفظة النور (اكتشاف الحقيقة كشروق الشمس). ثم تحدث مونو عن مفهوم "المجاز المطلق"، وأخيرا كيف يعيدنا علم المجاز إلى الميتافيزيقيا.

ماذا تبقى من ثورات العالم الثالث؟

هذا عنوان مقال الأستاذ الأنثروبولوجي الأمريكي كليفورد كيرتز، الاختصاصي في شؤون المغرب وإندونيسيا منذ حوالي نصف قرن.

يبدأ الكاتب مقالته بالحديث عن التحولات الكبرى التي عرفها الجنوب إثر تحرره من الاستعمار، حتى وصل عدد الدول اليوم 191 دولة. ودخلت هذه

الدول عصر الوطنيات بشعاراته الكبيرة في التحرر والتقدم والتعاون... لكن أنظمة ما بعد الاستعمار فشلت، وإن بقيت شعاراتها في الثورة وبناء الأمة وتأسيس الهوية.. قائمة. ويتحدث كيرتز عما يسميه " تناقض الوطنية Paradoxe " في العالم الثالث، فالدول المستعمَرة كانت تطالب بالاستقلال، لكن لتأسيس النمط نفسه من الدولة القومية المستعمِرة.

والفكرة المركزية للكاتب هي أننا لا نملك الأدوات المعرفية والمفاهيم اللازمة لفهم هذا التحول الذي استغرق نصف قرن. فقد كنا – معشر علماء السياسة– نقسم العالم إلى شيوعي وليبرالي وغير منحاز، وتقسيم كهذا بسيط لا ينفع في فهم الوضع المعقد الذي يعرفه العالم الثالث. فمفاهيم الدولة والأمة والشعب والوطن والمجتمع والثقافة الواحدة... لا تفسر حقيقة ما يجري في هذا العالم منذ نصف قرن. إن الأطر الفكرية التقليدية عاجزة عن استيعاب حقائق متنوعة ومركبة لدول كإندونيسيا والمغرب. ولبيان هذه القضية فصل الحديث عن هاتين الدولتين، ففي الأولى فشلت الدولة الوطنية التي وجدت صعوبات دائمة في توحيد البلاد، وفي الثانية تواجه المؤسسة الملكية رمز الوحدة الوطنية مصاعب في الاستمرار في أداء وظيفتها. ويمكن تعميم هذين المثالين على سائر بلدان العالم الثالث.

وينتقد كيرتز الرؤية السياسية الغربية – والتي فرضت نفسها على العالم- حين تعتبر أن كل دولة تضم أمة، وأن كل أمة تقع ضمن حدود دولة، أي يوجد تطابق تام بين الدولة والأمة. إن الدولة في العالم الثالث كائن مصطنع وغريب، وهي في الواقع لا تجمع أهل وطن واحد أو قومية واحدة، فهي تشكيلة سياسية غير طبيعية.

وهذا النقد وجيه، فالدولة الوطنية ما بعد الاستعمار فشلت على أكثر المستويات، بل إن فكرة الدولة القومية أضرت ولا تزال بالعالم الثالث، وهي سطحية ومصطنعة، إذ ماذا تعني الوطنية التونسية أو العراقية.. وهل للقومية الإندونيسية أو السنغالية من معنى..؟

رقصة الحضارات: الشرق والغرب وأبو غريب.

بهذا العنوان كتبت الجامعية الأمريكية لينفيلد مقالا تحدثت في بدايته عن كيفية تلقي اليسار الأمريكي واليمين هذه الصور لمساجين أبو غريب، وأوردت ملخصا للنقاش الداخلي الذي دار حول هذه الفضيحة.

وخلاصة المقال – والذي نشر أيضا في المجلة اليسارية الأمريكية Dissent– هو أن ما حدث في سجن أبو غريب فظيع حقا ويكشف عن انحطاط أخلاقي يعاني منه الأمريكيون. ولكن الوجه الآخر للموضوع هو هذه الجماعات الإرهابية التي – تقول الكاتبة– تريد تدميرنا.. وهذا الرأي العام العربي والإسلامي المتخلف والذي يرفض الحداثة.. وهذه الحرب التي تعلنها الشعوب المسلمة على نسائها(!؟). بكلمة: تحاول لينفيلد أن تجد ظروف تخفيف لبعض الآثار السلبية للحرب – التي لا تقلقها كثيرا– على الإرهاب. فهي تقف – كما تقول– في الوسط بين الذين يتحدثون عن انهيار القيم الأمريكية بفعل انتشار ثقافة العنف والجنس.. ويدينون حروب بوش، وبين الذين يدافعون عن طهرانية الأمريكيين وصواب السياسة الخارجية الأمريكية.

هذا الموقف "الوسط" هو الذي جعلها تتفق مع الأطروحة الأساس لميكائيل إيكناتييف في مؤلفه: " شر دون شر: السياسات والأخلاق في عصر الإرهاب أو الرعب Terror ". فهو يعتبر أن 11 شتنبر لم تفتح عهدا جديدا في شؤون السياسة فقط، بل كذلك في قضايا الأخلاق والقانون. أي إن مفهومنا لحقوق

الإنسان والديموقراطية يجب أن يتغير الآن. مثلا ينبغي السماح بممارسة أشكال من التعذيب – مدروسة وضمن شروط معينة– على سجناء الإرهاب.

وأثناء قراءتي لهذا المقال ضحكت كثيرا في باطني وأنا أتأمل هذا الغرب الغريب: كيف يملأ الدنيا بدعاوى عريضة – في أوقات القوة والأمن والسيطرة– عن حقوق الإنسان والديموقراطية.. وينصب نفسه صاحب رسالة "ميتافيزيقية" لإصلاح العالم وهداية الشعوب الدنيا إلى نور العقل والعدل والإنسانية. ثم كيف يتضعضع هذا كله حين يواجه بعض الأزمات، كيف يعيد النظر بسرعة في شعارات التسامح وحقوق الإنسان، فينقلب عليها وينساها، ويغدو سلوكه السياسي لا يختلف كثيرا عن سلوك غيره... فهل هو النفاق أم هي الهشاشة.. أم شيء من هذا وذاك؟

إن ما يهمني في منطق الكاتبة والمؤلف – وهو منطق واسع الانتشار اليوم بأمريكا وأوربا الغربية– هو تقريرهما مبدأ النسبية في هذه القضايا، إذ ما دامت مبادئ الديموقراطية والتسامح وحقوق الإنسان نسبية، يمكن تأويلها وتعديلها وفق ظروف الزمان والمكان و"الحاجة"... فلماذا ينكرون علينا نحن أن نؤسس لنظرية خاصة بنا في هذه المجالات، أعني أنظمة الحكم والحقوق والحريات.. نظرية تنسجم مع عقيدتنا وبيئتنا.

قانون 1905، أو العلمانية المقدسة:

يضم المحور الرئيس بالمجلة أربع مقالات تتعلق جميعا بقانون فصل الدين عن الدولة:

1- **هل ينبغي تغيير قانون 1905؟** وقد كتبه إميل بولا، واحد من أهم المختصين الفرنسيين في المسيحية وتاريخها. من آخر إصداراته: اللائكية في حياتنا العامة. وهو يعتبر أن كثيرا من الجدل حول هذا الموضوع خاطئ، لأن

كثيرا من الأطراف لا تملك عن القضية معرفة كافية. فقانون 1905 – على خلاف ما يظن- غُيِّر مراراً، إما مباشرة أو بسن قوانين جديدة تنسخ بعض مقتضياته. وليس صحيحا أن تمويل الجمهورية للكنائس انتهى، إذ لا تزال الدولة تمول الأديان بطرق جزئية وغير مباشرة. ويدعو الكاتب إلى طبع قانون 1905 أولا، وجعله في المتناول، مع مراعاة الإضافات والتعديلات والتطورات، فتكون طبعة نقدية.. حتى نعرف بالضبط حول أي شيء يناقش بعضنا الآخر.

2- **إشكالات 1905:** يشتكي الكاتبان – من هيئة تحرير "إسبري"- في المقال من الموقف التصلبي لقسم هام من اللائكيين الفرنسيين الرافضين لأي حوار أو نقاش حول هذا القانون بغية تعديله أو تغيير بعض بنوده. فكأنهم يعتبرونه نصا مقدسا. ويقولان: إن هؤلاء يخوضون معركة وهمية، لأنه لم تعد للكنيسة اليوم سلطة حقيقية، بل إن الكاثوليكية جد ضعيفة. وبهذا يفسران أزمة العلمانية نفسها، لأنها تأسست تاريخيا في مواجهة الكنيسة، فحين ضعفت هذه كأن سبب مشروعية العلمانية ذاتها غاب، أو على الأقل تغير. ويستمر الكاتبان في الشكوى، ويتساءلان لماذا هذه العزلة الفرنسية، في الوقت الذي تعرف سائر أوربا علاقات أفضل وأهدأ مع الدين. ولماذا لا يفرق هؤلاء اللائكيون بين الدين باعتباره ثقافة واعتقادا وبين الكنيسة، حتى أسقطهم ذلك في معاداة الدين مطلقا. ثم إن وضع الأديان تغير في عالم اليوم، وهناك عودة إليها. ويوجد أيضا عامل الإسلام الذي لم يكن جزء من الواقع الفرنسي قبل قرن من الزمان.

يدعو الكاتبان إلى حوار وطني منفتح حول هذه القضايا، وملاحظتهما صائبة، فعلمانيو اليوم بفرنسا كلائكيي ثورة 1789 وما بعدها.. أعمتهم معاداة الكنيسة والدين بصفة عامة عن ملاحظة ما حولهم والانتباه إلى التغيرات الهائلة التي طبعت العالم طيلة القرن الأخير. إن التطرف اللائكي الفرنسي يقع فعلا خارج التاريخ[1].

3- **نحو سياسة خاصة بالأديان: نموذج من آراء ساركوزي:** هذا مقال أوليفيي أبل، الأستاذ بكلية الإلهيات البروتستانتية بباريس. وهو يرى أن بلاده بحاجة ملحة إلى إعادة النظر في مكانة الأديان في الحياة الفرنسية. وينطلق من عرض لآراء الوزير الفرنسي ساركوزي، وهو مرشح قوي لرئاسة الجمهورية سنة 2007، تضمنها كتاب حواري معه. مما جاء فيه: "أنا فقط أحاول أن أوضح أننا لم نكن نقدر الظاهرة الدينية حق قدرها، فهي أهم مما نعتقد، بل تستطيع الأديان أن تكون عامل سلام وتوازن واندماج وتجمع وحوار، لذلك على الجمهورية أن تقبل بفتح حوار قومي حول هذه القضية".

ويعلق أبل على ذلك بأن انحسار المسيحية بفرنسا تسبب في وقوع فراغ كبير لم يستطع أي شيء آخر سده. لذلك نفهم لماذا يطالب ساركوزي بتشجيع الأديان وتسهيل مهمتها وتنظيم شؤونها، بل يرى حتى إمكانية توفير تعليم ديني عام في المدارس العمومية يركز على المشترك: إله واحد، وعقيدة البعث، ومعنى للتاريخ، والأخلاق..

---

[1]-راجع الترجمة التي أنجزتها لحوار أجرته مجلة "علوم إنسانية" مع أحد الاختصاصيين بقضايا العلمانية، وكذا التقديم الذي سبق الحوار.. كل ذلك بعنوان: "العلمانية: بين اضطرابات الماضي ومآزق الحاضر و المستقبل"، في كتابي القادم: نوافذ على عالمنا المضطرب.

قلت: من الأمور التي فتّحت وعي ساركوزي على ما سماه الظاهرة الدينية هو اطلاعه على أوضاع المسلمين بفرنسا واحتكاكه القريب بمشاكلهم. وذلك حين عمل وزيرا للداخلية، وهي المكلفة بشؤون الأديان. وأنا أرى أن خير حليف اليوم للكنيسة وللمسيحية بفرنسا هي الجالية المسلمة، لأن وجودها يؤدي -بشكل غير مباشر- إلى دفع الفرنسيين لتحديد هوياتهم ويجبرهم على إعادة النظر في قضايا كانوا يحسبون أنها محسومة. لذا تجد أن السبب المباشر لهذا الجدل الواسع حول العلمانية وقانون 1905 كان هو مسألة الحجاب بالمدارس والجامعات. لذا أرى أن تقاربا مسيحيا-إسلاميا بفرنسا سيكون مفيدا للطرفين.

4- **تاريخ الكنيسة، وتاريخ الأديان، والتاريخ الديني:** هذا عنوان مقال المؤرخ المعروف اكسافيير بونيفاس، يستبق فيه سؤال ماذا يمكن تدريسه عن الدين بالمدرسة، في حالة حدوث ذلك طبعا. فهو يشرح معنى كل حقل من هذه الحقول الثلاثة، وكيف نشأ، وما منهجه العلمي، وما إيجابياته ونواقصه. ولكنه لم يرشح شيئا من الدراسات الثلاث.

الطب والتشريع والتجربة:

في هذا المحور ثلاث مقالات: كُتب الأول بمناسبة صدور قانون فرنسي حول مسألة وضع حد لحياة المرضى الميؤوس منهم. والثاني يتناول بعض مشاكل البحث الطبي على جسم الإنسان، من النواحي الأخلاقية. والثالث في تنظيم التجارب التي يجريها الأطباء على مرضى السرطان بموافقتهم.

9- "المجلة الفرنسية لعلم الاجتماع":

تضمنت الدورية المتخصصة في علم الاجتماع، والتي يديرها حاليا الأستاذ محمد الشرقاوي، في عدد أيار وحزيران، خمسة بحوث رئيسة:

1-"**القطاع الجنائزي: اقتصاد إغراء وتحايل**": يندرج هذا المقال ضمن علم الاجتماع الاقتصادي، والمؤلف اختار موضوعا غريبا هو تجهيز الميت: غسله ودفنه وجنازته... فأخذ يحلل ويدرس القضية باعتبارها موضوعا اقتصاديا بحتا، فتعرض لهذه السوق وما فيها من عرض وطلب ومنافسة و استراتيجيات لجذب الزبائن.. مما يشكل تجارة حقيقية وعادية. وعجبا لهؤلاء القوم الذين أدخلوا التجارة والمال في كل شيء.. حتى في الموت.

2-"**مخاوف نسائية بالفضاءات العمومية**": خوف النساء من الخروج لوحدهن إلى الأماكن العامة حقيقي، ويغذيه العنف الموجه ضدهن بأنواعه. والمقال دراسة للعلاقة بين الشعور بعدم الأمان وتجارب دور التضحية وتنقل النساء.

3-"**أساتذة التعليم المهني: مكافحة الفشل الدراسي وتحفيز التلامذة**": إن تراجع مستوى حياة العمال واحتقار التوجه نحو التعليم المهني الثانوي.. يضع أمام الأساتذة صعوبات في التعامل مع تلاميذ محبطين بسبب هذا التوجيه. والمقال دراسة لسلوك الأساتذة ومشاكلهم وآرائهم.

4-"**إعادة تنظيم التجارة الصغرى بوسط المدينة بالبرتغال**": لماذا لا ينجح التجار الصغار بوسط مدينة تاريخية برتغالية متوسطة الحجم في التنسيق فيما

بينهم وإعادة تنظيم تجارتهم لمواجهة المنافسات الشرسة للشركات الكبرى... وربط ذلك ببعض نظريات علم الاجتماع الاقتصادي.

5-"**العرضية في العمل: مقولة فرنسية في إطار مقارنة دولية**": دراسة للمفهوم: أصله وتطوره ومقارنته بدلالته عند شعوب أوربية أخرى. ويلخص هذا المفهوم نمو شكل جديد من العمل المؤقت والمتغير والمرن.. مع تقدم الليبرالية المتوحشة.

10- "لـيـر":

مجلة لير – أي فعل القراءة- من أهم المجلات الفرنسية في حقل الأدب عموما، والرواية بالخصوص، وهي تصدر كل شهر من نحو ثلث قرن. ومادتها دسمة ومنوعة.

مستقبل الرواية وأفضل الروائيين الشباب:

تبدأ المجلة بافتتاحية لرئيس التحرير خصصها لـــ "مستقبل الأدب"، حيث يرى نقاد كبار – من أوربا بالخصوص- أننا نشهد عصر انتهاء الرواية بسبب الضغط الكبير لوسائل الإعلام والتواصل الحديثة. وهذا ما يرفضه الكاتب جملة وتفصيلا. ومن أهم حججه هذا الملف الخاص الذي تقدمه "لير" في عددها لأيار 2005 عن الأدباء الشباب. فقد رشحت المجلة خمسين كاتبا جديدا يبدو من خلال أعمالهم الأولى أنهم هم من سيطبع المشهد الأدبي لهذا النصف الأول من القرن الحادي والعشرين، خصوصا في مجال الرواية، فهم إذن الروائيون الواعدون. ويضيف الكاتب سببا آخر لاستمرار الرواية، هو أنها تمكننا من نظرة كلية إلى عالمنا المعيش في عصر التخصص الجزئي الدقيق وغياب الفلسفة.

والحقيقة أن هذا الملف الذي تقدمه "لير" ممتع جدا، ويعرفنا على عدد كبير من المواهب الأدبية من مختلف بلدان العالم، ولو أنني ألاحظ شبه غياب لإفريقيا وأوربا الشرقية والعالم العربي، ولست أدري هل ذلك لقلة الروائيين الشباب المتميزين بهذه المناطق، أم لضعف حركة الترجمة إلى اللغات العالمية. وتعمدت "لير" عدم ذكر الفرنسيين في هذه اللائحة، وحسنا فعلت.

وكنت كتبت أسماء الخمسين كاتبا وأعمارهم وأفضل رواياتهم، ثم حذفت ذلك للاختصار.

فولكنر... وكانديرا:

ومن المقالات: "في ظل فولكنر"، وهو تحقيق صحفي عن مدينة جامعية صغيرة بولاية المسيسيبي بأمريكا، تسمى أكسفورد. عاش بها ودفن الروائي الأمريكي الكبير والحائز على نوبل في الآداب: وليام فولكنر المتوفى سنة 1962. هذه المدينة الصغيرة تحتضن عددا هاما من الروائيين (40 كاتبا) من الجنوب الأمريكي، يعد بعضهم اليوم من كبار أدباء الولايات المتحدة مثل براد واطسون وطوم فرانكلين.. وفي المجلة أيضا قراءة لإصدار جديد للروائي والناقد الفرنسي من أصل تشيكي: ميلان كانديرا، وهو كتاب: "الحجاب" الذي يحاول الإجابة عن سؤال: ما الرواية؟ ففن الرواية عنده يكمن في نزع ستار التأويل المسبق الذي يسيطر على عقول أكثر الناس. ويدعو كانديرا إلى أدب عالمي يتجاوز التصنيف الضيق للأعمال الأدبية على أساس وطني أو إقليمي. كما يرى أننا نكتب الرواية للهروب من سلطة النسيان.

إصدارات جديدة:

وبالمجلة مقال آخر عن الرواية الجديدة والناجحة التي كتبها غارسيا ماركيز، وعنوانها "ذكريات عن أحزاني الملعونة". وصدرت أيضا رواية "الغرقى" للكاتب التشيلي هرنان نييرا. ولعلها جاءت في وقت ضعف فيه أدب البحر. وفي هذا الإطار أيضا صدر للمؤرخ ببير فيدال ناكي كتاب عن قارة أطلنتس، ورأيه أن القصة مجرد أسطورة تخيلها أفلاطون على عادته في التمثيل. وقد لاحظت أن اهتمام الغرب بأسطورة أطلنتس لم يخبو، وشارك فيه العلماء والأدباء (جول فيرن) منذ وقت باكر. يقول ويلسون: إنه إلى حدود

منتصف القرن العشرين فقط نشر بالغرب حول أطلنتس أزيد من ألفي بحث، ما بين الكتاب والمقال[1]. ولست أعرف تفسيرا لهذا الاهتمام على وجه اليقين، ولعله مظهر من مظاهر عاطفة حب العجيب.. في وقت تعب فيه الناس من العقل البارد.

موبي ديك.. بين الشعرية والميتافيزيقية:

احتوى باب "الأعمال الكلاسيكية" على مقالين عن "موبي ديك" لملفيل: إحدى أفضل روايات أدب البحر على مر التاريخ، وهي عند كاتب المقال الرواية الأشد ميثية (من الميثولوجيا، أي ما يتعلق بالأساطير) في الآداب الأمريكية. وحاول الكاتب الثاني تفسير هذه الناحية الميتافيزيقية في الرواية، ولا أعتقد أنه توفق في ذلك. وربما كانت ميتافيزيقية "موبي ديك" كميتافيزيقية "العجوز والبحر" لإرنست همنغواي، فكلتا الروايتين تستندان إلى البحر، وفي البحر أسرار نشعر بها ولا نستطيع التعبير عنها بنجاح. حتى التصوف – خصوصا الإسلامي- ارتبط بالبحر، بل هذه قصة موسى عليه السلام يبحث عن الرجل الصالح فيركب البحر، وهي قصة مركزية في التأمل الصوفي[2].

ومناسبة نشر هذين المقالين هو إعادة طبع الترجمة الفرنسية الأكثر شاعرية والأدق معنى للرواية. ولحسن الحظ أننا نملك بالعربية ترجمة رائعة أنجزها الأستاذ إحسان عباس، وبذلك سهل علينا الاطلاع على إحدى القمم الأدبية في الرواية، ورواية البحر بالخصوص.

1- الإنسان وقواه الخفية، لكولن ويلسون، ص 101، ط2، مصر، دون ذكر اسم المطبعة.

2- اقرأ القصة في سورة الكهف بع، آية 59 فما بعدها، أو في مجاميع الحديث كالصحيحين. وانظر كيف يستلهم الأستاذ أحمد التوفيق البحر في روايته الصوفية: "جارات أبي موسى". ولا يزال ضريح هذا الرجل الصالح قبالة الشاطئ بمدينة سلا. وقد كتبت عن هذه الرواية بـ "المجلة العربية"، عدد كانون الأول، 2004.

المخيال والتاريخ:

وآخر ما في المجلة حوار هام ومفيد مع شيخ المؤرخين الفرنسيين: جاك لوكوف (81 سنة)، وواحد من أبرز المتخصصين في العصر الوسيط الأوربي في عالم اليوم.

وقد عاد لوكوف – في السنوات الأخيرة– إلى الاهتمام بموضوع المخيال الأوربي في العصور الوسطى باعتبار أن فهم هذا المخيال شرط لازم لفهم هذه الفترة من التاريخ. ولوكوف نفسه اكتشف العصر الوسيط في شبابه بعد قراءته رواية لوالتير سكوت، والمعروف أن هذا الروائي الاسكتلندي (1771-1832) كان يكتب ما يمكن تسميته بالرواية التاريخية، وكان أكثر أبطاله من العصور الوسطى.

لذا يرى لوكوف أن إقصاء تاريخ الفن، والقانون، وآداب الأزمنة الماضية.. من دائرة الدراسات التاريخية.. خطأ فادح. فالمخيال هام جدا في الوجود البشري، وميدانه الرئيس هو الأدب، كالقصة والحكاية والرواية. وعن سؤال احتمال خطا المؤرخ الذي يعتمد على الأدب يجيب لوكوف بأن الاحتمال ضعيف، لأن المؤرخ يستحضر الوثائق والنصوص أيضا ويقارنها بالمخيال. ويفرق لوكوف بين المخيال والخيال والرمز والإيديولوجي. كما أنه يلاحظ عودة كثير من عناصر المخيال الوسيط إلى عصرنا هذا، خصوصا عن طريق السينما (مثال الفيلم الذي ظهر مؤخرا: سيد الخواتم). وتعليله لهذه العودة هو حاجتنا إلى هذه الناحية اللاعقلانية والتي لم يستطع الخيال العلمي إشباعها.

وأنا شخصيا متفق تماما مع لوكوف حول فكرته المركزية في أهمية دراسة المخيال، فقد توصلت إلى النتيجة نفسها من خلال دراستي لبعض

الظواهر "اللاعقلانية" التي عرفها الاجتماع البشري ولا يزال[1]. وقبل ذلك سار الإنجليزي دودس في الاتجاه نفسه، وكتب كتابه الكلاسيكي الشهير: "الإغريق واللاعقلاني". بل أرى أنه من دون دراسات عميقة وواسعة للمخيال المعاصر، ولهذا الوجه الآخر للإنسان (العقل واللاعقل).. لا يمكن أن نفهم حقيقة الإنسان الحديث. وهذا أيضا رأي بعض الباحثين، يقول هوتان: "توجد إمكانية للقيام بدراسة نفسية، وهي مهمة جدا، لاستمرار هذا الاهتمام الحي بكل ما هو خفي وباطني في جميع البلدان الغربية، رغم كل الانقلابات السياسية والاجتماعية والاقتصادية لهذين القرنين الأخيرين"[2].

وملاحظتي الأساس على التكوين والإنتاج العلميين للوكوف هو محدودية معرفته بالعالم الإسلامي الوسيط، بحيث غاب عن مجال درسه واهتمامه نصف العالم المعروف آنذاك والذي كان يعيش قمة حضارته، والذي كان أيضا شديد التداخل مع العالم الأوربي. يكفي أن أذكر في هذا المجال دور "ألف ليلة وليلة" في استثارة الخيال الأدبي الأوربي (قرأها فولتير 16 مرة)... وإن كان للوكوف بعض العذر، لأنه من الصعوبة بمكان الإحاطة بكلا العالمين.

ولي عودة – إن شاء الله– إلى بعض أعمال لوكوف، ومنها "الأبطال والخوارق في العصر الوسيط".

---

[1]- درست بعمق ظاهرتين هامتين من هذا النوع، وذلك من خلال التراثين الإسلامي والأوربي، وكان ثمرة ذلك كتابين: 1- النظرية الإسلامية في الكهانة، 2- مقدمة في التنجيم، وحكمه في الإسلام، كلاهما صدر عن مؤسسة الرسالة، بيروت، 2003. وقد نفدت هذه الطبعة وأحاول إصدار أخرى.

[2]- Serge Hutin : L'Alchimie, p 114. Presses de France, collection Que sais-je ? 8ème édition, 1991.

11- "الحوار، أو الجدل":

هذه مجلة فصلية تعنى بقضايا "التاريخ والسياسة والمجتمع". ولا يهمنا العدد الأخير من هذه الدورية (من أيار إلى أغسطس)، لأنها اختارت ملفا خاصا عن "تدريس اللغة الفرنسية: المناهج، والكتب، والتعليم، والقراءة"، فهو تقني لأهل الاختصاص.

12-13- إصدارات جديدة:

أختم هذه الجولة بالتعريف ببعض المجلات الفرنسية الجديدة التي صدرت مؤخرا، وذلك في حقول الفكر والتاريخ والعلوم الإنسانية.. وأقتصر هنا على التعريف بإصدارين وإعطاء نبذة عن محتوياتهما:

12- "تاريخ وتراث": اختارت أن تخصص عددها الأول للبروتستانتية محاولة تتبعها من أصولها المعروفة بـ "الإصلاح الديني" إلى أحوالها اليوم.

الظاهرة الدينية الجديدة: صعود الإنجيليين.

وفي الحوار الذي أجرته المجلة مع الأستاذ والأكاديمي المتخصص في الموضوع فيليب جوتار، نجده يعلل نجاح البروتستانتية بتوافقها مع الفردانية الحديثة. ولكنه غير مطمئن للصعود السريع الذي تعرفه اليوم الكنيسة الإنجيلية، وهي أهم الكنائس البروتستانتية (حوالي 400 مليون منتم مقابل 312 مليون شخص محسوب على الكنائس الأخرى كالكالفنية والتعميدية...).

فهي تخلط بين التبشير العادي وبين رؤية سياسية خاصة تبغي السيطرة.

ويرى المحاوَر أن بين الإنجيليين – في المسيحية– وبعض السلفيين – في الإسلام– شبها كبيرا، فعندهما معا نجد: أجوبة بسيطة لعالم معقد، وقراءة

حرفية للنصوص، وتفكير مانوي يقسم الناس إلى ناجين وهالكين.. ولذلك يخشى على السلم العالمي من الكنائس الجديدة التي تنبت كالفطر، في أمريكا خاصة.

وتنبه مقالات أخرى على ظاهرة التقدم السريع للإنجيليين، وهو تقدم أسرع من الإسلام، كما يقول سيباستيان فاط الاختصاصي في الحركات الإنجيلية، والذي كتب مقالا ثانيا عن التأثير الذي يمارسه هؤلاء على السياسة الخارجية للولايات المتحدة في عهد الرئيس بوش الابن.

وتقول ناتالي لوكا – الباحثة بالمركز الوطني الفرنسي-: من مظاهر هذا النجاح الإنجيلي أن 25% من سكان كوريا الجنوبية أصبحوا بروتستانت إنجيليين، وكذلك ما يقدر بخمسين مليون صيني.

وفي المجلة أيضا مقال عن علاقة البروتستانتية بالرأسمالية، وهو موضوع لم ينته بعد منذ أثاره ماكس فيبر قبل قرن من الزمان.

تقصير الفكر العربي-الإسلامي في دراسة الموضوع:

والحقيقة أننا – معشر العرب والمسلمين، خاصة أهل الفكر والعلم منهم- قصّرنا حين لم نتعرف في الزمان المناسب على التطورات التي كانت تعيشها البروتستانتية منذ حوالي نصف قرن.. حتى فوجئنا بقوتها اليوم، وبأن لأكبر فروعها تأثير هام على حاضرنا ومصائرنا.

ومما يعلل هذا التقصير في نظري هو أن الفكر الإسلامي الحديث المهتم بالأديان نسي في غمرة انشغاله بالكاثوليكية وعقائدها أن يوجه بعض جهوده لفهم البروتستانتية وتتبع أحوالها، حتى إنني لا أعرف لمفكر أو مؤلف عربي كتابا عميقا وواسعا في موضوع البروتستانتية.

هذا ما ظهر لي وأنا أُعد لتأليف كتاب عن الإصلاح الديني بين الإسلام والمسيحية. فلعل في الباحثين والمؤسسات الفكرية من يسد هذه الثغرة الخطيرة.

الإسلام في المجلة:

وقد خصصت "تاريخ وتراث" عددا مستقلا كاملا عن الإسلام، وهو موجه إلى الجمهور الغربي بالأساس، لذا لا معنى لتفصيل الحديث فيه هنا. ولكن ملاحظتي الأبرز هي أن هذا العدد جيد، ويكشف عن رغبة صادقة – على العموم– في التعريف بمختلف مناحي الحضارة الإسلامية، خصوصا الإيجابية منها. وهذا ما يؤكد مرة أخرى وجود تيارات ثقافية بالغرب تتسم بالموضوعية تجاه الإسلام، أو على الأقل تحاول ذلك. لذا لا يوجد في الواقع غرب نمطي واحد، بل توجد أغراب متنوعة.

13- **"الإثنيات. في التعرف على شعوب العالم"**، وهي فصلية تهتم بالجماعات البشرية وبالأنثروبولوجيا. وقد خصصت عددها الأول للشعب الفلسطيني منذ بداية القرن العشرين إلى اليوم: المشكلة السياسية، والأوضاع اليومية للناس.. وهو عدد متعاطف مع القضية.

ختاما:

هذا باختصار أهم محتويات عدد من المجلات الفرنسية الكبيرة التي صدرت في ماي 2005، وما بعده. وأتمنى أن أواصل هذا العمل مستقبلا، وأعرّف القارئ الكريم على مجلات أخرى إضافية. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

لائحة المجلات المعتمدة:

1- Le Débat. (Histoire, politique, société). Revue Trimestrielle. Directeur Pierre Nora. N° 135, Mai à Août 2005.

2- Diplomatie. (Affaires stratégiques et cultures internationales). Bimestrielle. Directeur Alexis Bautzmann. N°14, Mai-Juin 2005.

3- Esprit. (Revue internationale). Mensuelle. Directeur Olivier Mongin. Juin 2005.

4- Ethno. (A la rencontre des peuples du monde). Rédacteur en chef Jean-Paul Bobin. N°1. 2005.

5- Histoire et Patrimoine. Directeur de la rédaction Richard Clavaud.

6- Historia. (A la lumière du passé, le présent s'éclaire). Mensuelle. Directeur Pierre Baron. N° 701, Mai et N°702 ,Juin, 2005.

7- Lire. Mensuelle. Rédacteur François Busnel. N° 335, Mai 2005.

8- Le Monde, Dossiers et Documents. Mensuelle. N° 343, Juin 2005.

9- Problèmes politiques et sociaux. Mensuelle. Publication de la Documentation Française. Rédactrice en chef: Nathalie Robatel. N° 912, Mai et N° 913, Juin, 2005.

10- La Revue des Deux Mondes. Mensuelle. Rédacteur en chef: Michel Crépu. Juin 2005.

11- Revue française de Sociologie. Trimestrielle. Directeur Mohamed Cherkaoui. N° 46, Avril-Mai-Juin 2005.

12- Revue Tiers Monde. Trimestrielle, publiée par L'institut d'Etude du Développement économique et social de l'université Sorbonne. Directeur Bruno Lautier. N° 182, Avril-Mai-Juin 2005.

13- Sciences Humaines. Mensuelle. Directeur Jean-François Dortier. N° 162, Juillet 2005.

فهرس المحتويات:

الأعداد القادمة من سلسلة "كشكول الرسائل والمسائل"

- مدارسة في كتاب "نظرية التقريب والتغليب وتطبيقاتها في العلوم الإسلامية"، لأحمد الريسوني.
- فوضى النظام العالمي الجديد، لرجاء غارودي. ترجمة وتعليق.
- العقيدة والإمامة والتاريخ عند الشيعة الإسماعيلية.
- كيف تصبح عالما. (البناء الثقافي لطالب العلوم الشرعية).
- كتاب "الاستعداد للقرن الحادي والعشرين "لبول كيندي. قراءة نقدية.
- البار اسيكولوجيا: رؤية شرعية.
- أمل الإنسان في الخلود: بين الدين والطب والفلسفة.
- رسالة في أحكام الطاعون، تقديم وتحقيق.
- في خطورة المسألة السكانية.
- ديوان المظالم: في الفقه الإسلامي والقانون المغربي.
- آل بلكين في التاريخ.

التعريف بالكاتب: انظر الصفحة 2 على ظهر الغلاف.

10 دراهم



مطبعة آنفو-برانت
Imp.Info-Print
Tél/Fax: 035.64.17.26 - Fès
E-mail:infoprintfes@gmail.com